الفصل الثاني

البيئة ورعايتها في التراث العربي

- فساد الهواء
- العدوى المباشرة من المريض
- تلوث المياه السطحية ومياه الشرب
- المسكن الصحي وشروطه
- الحيوانات والحشرات أسباب للأمراض
- الرقابة الوقائية ومواجهة التلوث
- المساجد
- الأسواق والطرق
- محلات الأطعمة
- الحمّامات

الفصل الثاني
البيئة ورعايتها في التراث العربي

يتناول هذا الفصل: البيئة في التراث العربي من جوانب: فساد الهواء، العدوى المباشرة من المريض، تلوث المياه السطحية ومياه الشرب، السكن الصحي وشروطه، الحيوانات والحشرات أسباب للأمراض، الرقابة الوقائية ومواجهة التلوث، المساجد، الأسواق والطرق، محلات الأطعمة، الحمّامات.

على الرغم من عدم معرفة الأطباء العرب والمسلمين لعلم الجراثيم، إلا أن كتاباتهم عن أسباب الأمراض وانتقالها وإشاراتهم لمسألة تلوث البيئة والسكن الصحي تدل على باع طويل في دقة الملاحظة والتجربة والفهم الصحيح. ويمكن لأي باحث منصف التحقق من ذلك باستقراء النصوص التي وردت عنهم عند تناولهم لأسباب الأمراض.

١. فساد الهواء

يعزي المجوسي- كان حياً قبل سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م- حدوث وانتشار الأوبئة إلى تبدلات الجو وفساد الهواء بالعفونات، يقول: "فأما خروج الهواء عن الاعتدال في جملة جوهره، فهو أن يستحيل في جوهره وفي كيفياته إلى الفساد والعفن، فيحدث في الناس أمراضاً وأعراضاً رديئة... وتسمى هذه الأمراض بالوافدة... وذلك لأن السبب المحدث لها عامل مشترك وهو الهواء المحيط بنا". "وأما تغير جوهر الهواء من قبل الموضع فيكون إما من بخارات تحدث من كثرة الثمار والبقول إذا عفنت فيرتفع منها بخارات رديئة تخالط الهواء أو من بخارات ترتفع من الخنادق أو من البحيرات من الآجام أو من أقذار المدن، وأما من حيث

القتلى والموتى تكون في البلد أو بالقرب منه إما حرب يقتل فيه كثير من الناس أو موت البهائم، ثم إذا حدث فيهم الوباء فيرتفع من تلك الجيف بخارات رديئة فتخالط الهواء فيستحيل الهواء إلى جوهر البخار وكيفيته فيستنشقه الناس فتكثر فيهم الأمراض الرديئة المهلكة كالموت الذي عرض لأهل أثينا"[1].

ويعرّف ابن سينا "٣٧١– ٤٢٨هـ/ ٩٨٠– ١٠٣٧م" الهواء الجيد فيقول: "الهواء الجيد الجوهر هو الهواء الذي ليس يخالطه من الأبخرة والأدخنة شيء غريب، وهو مكشوف للسماء غير محقون الجدران والسقوف"[2].

ويذكر ابن رضوان "المتوفى ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م" بأن فساد الهواء هو أحد أسباب حدوث الأمراض الوافدة "الأوبئة" فيقول: "والهواء تتغير كيفيته على ضربين، أحدهما تغيره الذي جرت به العادة، وهذا لا يحدث مرضاً وافداً ولست أسمّيه تغيراً ممرضاً، والثاني تغيره الخارج عن مجرى العادة وهذا هو الذي يُحدث المرض الوافد، وكذلك الحال في الباقية فإنها إما أن تتغير على العادة فلا يحدث مرضاً، وأما أن يكون تغيرها تغيراً خارجاً عن العادة فيحدث المرض الوافد، وخروج تغير الهواء عن عادته يكون إما أن يسخن أكثر أو يبرد أكثر أو يرطب أو يجف أو يخالطه حال عفنية، والحال العفنية إما أن تكون قريبة وإما بعيدة"[3].

وللإمام الغزالي قول جدير بالذكر عن حقيقة حامل الميكروب وفترة الحضانة، يقول: "إن الهواء في البلدة المصابة بالوباء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلا بعد التأثير في الباطن فالخارج من البلد يقع به الوباء لا يخلصن غالباً مما استحكم به"[4].

---

[1] كامل الصناعة الطبية. علي بن العباس المجوسي. المطبعة الكبرى بالديار المصرية، ص١٦٨-١٦٩.

[2] القانون في الطب. أبو علي الحسين بن سينا. طبعة بالأوفست. مكتبة المثنى، بغداد، ص٨٤.

[3] رسالة في الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر. علي بن رضوان. تحقيق دكتور رمزية الأطرقجي. مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ص٤٦.

[4] العدوى بين الطب وحديث المصطفى. محمد علي البار. الطبعة الأولى، دار الشرق، جدة، ص٧٦.

وعن أهمية عدم مجالسة المرضى بأمراض خطرة، يذكر إبراهيم عبد الرحمن الأزرق- كان حياً ٥١٨هـ/ ١٤١٢م- في كتابه "تسهيل المنافع" الصريح في ذكر وتحديد الأمراض المعدية نتيجة تلوث الهواء حيث يقول: "وينبغي للإنسان اجتناب الأمراض المعدية بواسطة الهواء إلى مجالسة أصحابها كالجذام... والرمد والسل فليحذر القرب من أصحابها وليتباعد عنهم إلى فوق الرمح إلى ما بعد"[1]. جدير بالذكر، أن تحديد المسافة بين الصحيح والمريض إلى أكثر من الرمح خشية العدوى هي نفس المسافة التي تُشترط اليوم بين أسرّة المرضى في المستشفيات.

٢. العدوى المباشرة من المريض

لقد جاءت أقوال الرازي "٢٥١- ٣١٤ هـ/ ٨٦٥- ٩٢٧م" مؤكدة هذه الحقيقة حيث يقول: "ومما يعدي الجذام والجرب والحمى الوبائية "التيفويد" والسل... إذا جُلس مع أصحابها في البيوت الضيقة وعلى الريح، والرمد ربما أعدى بالنظر إليه، والقروح الكثيرة الرديئة ربما أعدت بالجملة كل علة لها نتن وريح فليتباعد عن صاحبها[2].

وجاء التأكيد الواضح والجلي حول ذلك في أقوال ابن الخطيب وابن خاتمة عند التحدث عن وباء الطاعون، يقول "ماكس مايرهوف": "فوصف المؤرخ والطبيب ابن الخطيب الغرناطي "١٣١٣- ١٣٧٤م" عدوى الطاعون في غرناطة سنة ٧٤٩هـ في رسالته الشهيرة "مقنعة السائل في المرض الهائل"، منها هذه الفقرة: "وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والأخبار المتواترة وهذه مواد البرهان... و... وقوع المرض في الدار أو المحلة فالثوب والآنية حتى القرط أتلف من علق بأذنه وأباد البيت بأسره ووقوعه في

---

[1] تسهيل المنافع في الطب والحكمة. إبراهيم عبد الرحمن الأزرق. ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد الحنفي، مصر، ص١٨٠.

[2] المنصوري في الطب. أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. تحقيق الدكتور حازم البكري الصديقي، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٩٨٧، ص٢٢٥.

المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في أفراد المباشرين، ثم جيرانهم وأقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق"[1].

وكتب أبو جعفر أحمد بن خاتمة المراكشي "المتوفى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م" في كتابه "تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد" عن بداية انتشار الطاعون في السواحل الأندلسية عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٧م وأنه شهد انتشاره في مسقط رأسه المرية. وأشار في كتابه إلى المسائل التي تتعلق باستعداد أناس للإصابة بعدوى الطاعون ومناعة آخرين، وتكلم عن انتقال المرض من المصاب إلى السليم من طريق الملابس والفرش الملامسة، يقول: "وجدت بعد طول المعاناة أن المرء إذا لامس مريضاً أصابه الداء وظهرت عليه العلامات". كما حذر من أكل لحوم الماشية التي وقع فيها الموتان– أي الوباء– وذلك من باب الوقاية والتحفظ.

٣. تلوث المياه السطحية ومياه الشرب

ينوّه ابن رضوان على أن مياه النيل تتلوث نتيجة وقوفه عن الحركة لاحتقان الماء فيه وعند الفيضان حيث يجلب العفونات والأوساخ من المستنقعات والمدن التي يمر منها، لذلك يؤكد على ضرورة غليه وتصفيته قبل شربه، كما أكد أيضاً أن مياه آبار القاهرة لا تصلح للشرب لأنها تختلط بما يرشح فيها من عفونة المراحيض. وقد جاءت آراؤه هذه في رسالته "دفع مضار الأبدان بأرض مصر"، منها مايلي: "وقد استبان أن المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة وأنه ذو أجزاء كثيرة وأن هواؤها وماؤها رديئان وأردأ ما يكون النيل بمصر عند فيضانه وعند وقوف حركته وعلى ذلك فينبغي أن يُغلى الماء ويبالغ في تصفيته... فرداءة ماء النيل ناتجة من وقوف حركته في زمن الصيف ومن حركة زيادته لأن يجلب معه الأقذار والعفونات ولذلك ينبغي أن يسقي من المواضع التي فيها جريانه أشد والعفونة فيها أقل"... "وأما الآبار فإن ماؤها لا يصلح للشرب منه لقرب مياه القاهرة وضواحيها من وجه الأرض مع سخافتها يوجب ضرورة أن يصل إليها بالرشح من عفونة المراحيض شيء ما ولأن

---

[1] تراث الإسلام. توماس أرنولد. ترجمة جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ص٤٨٧- ٤٨٨.

بطائح الأرض تمتلئ متى صار ماء النيل في أيام فيضانه"[1]. وتعدّ رسالة ابن رضوان هذه "دفع مضار الأبدان بأرض مصر" محاولة رائدة فيما يسمى الآن بالطب الجغرافي أو الجغرافية الطبية. كما يمكن أيضاً اعتبارها بحثاً مبكراً في طب الأمراض المتوطنة.

وقد جاءت إشارات عديدة لدى الأطباء العرب والمسلمين حول العلاقة بين المستنقعات وانتشار الأوبئة، من ذلك قول الزهراوي في الحمى الوبائية: "من أسباب إفراط الكيفيات على الهواء من بخارات المياه الراكدة المتعفنة وما يغلب على الهواء من روائح الجيف والقتلى... وما شاكل ذلك، فإذا تغير الهواء وفسد بأحد هذه الأسباب، ولاسيما نتن الجيف والموتى فهو أعظم ضرراً فيعرض عند ذلك تغير لأكثر الناس أمراض خبيثة رديئة... وتحدث هذه الحميات... باستنشاق الهواء"[2].

ويقول ابن زهر "٤٦٤– ٥٥٧ هـ/ ١٠٧٢– ١١٦٢م": "وأما المياه فإنها إن كانت مياهاً راكدة تنتن وتكون عكرة بما تحتها من حمأ وأقذار، فإنها قد يكون عنها ما ذكرته من الوباء بالحميات الدقية"[3].

وعن كيفية الحصول على الماء الصالح أو استصلاحه يقول ابن رضوان: "وينبغي أن ما يروق ويشرب، وأن تصفيه بأن تجعله في آنية الخزف والفخار أو الجلود، وتأخذ ما يصل منه بالرشح، وإن شئت أسخنته بالنار وجعلته في هواء الليل حتى يروق، ثم قطعت منه ما راق، إذا ظهرت لك فيه كيفية رديئة محسوسة فأطبخه بالنار ثم برده"[4].

وطبقاً لرأي ابن سينا فإن أفضل المياه مياه العيون الجارية والمنحدرة من مواضع عالية وكذلك ماء المطر، ومن نصائحه لإصلاح الماء قوله: "والتصعيد والتقطير مما يصلح المياه

---

[1] الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية. محمد العربي الخطابي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، جـ٢، ص١٥٧.

[2] التصريف لمن عجز عن التأليف. أبو القاسم خلف الزهراوي. نقلاً عن العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ص١٥٧.

[3] التيسير في المداواة والتدبير. أبي مروان عبد الملك بن زهر. تحقيق دكتور ميشيل الخوري. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الأولى جـ٢، ص٤٢٢.

[4] رسالة في الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر. علي بن رضوان. تحقيق دكتور رمزية الأطرقجي. مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، ص٢٤، ٤٢، ٧٢.

الرديئة فإن لم يكن ذلك فالطبخ". "وأما مياه الآبار فرديئة وذلك لأن مياهها محتقنة مخالطة للأرضيات... وأردؤها ما جعل لها مسالك في الرصاص فتأخذ من قوته وتوقع كثيراً من قروح الأمعاء". وهذه إشارة صريحة إلى حالات التسمم بالرصاص. "والمياه الراكدة الأجية خصوصاً المكشوفة فرديئة... والمياه الراكدة كيفما كانت غير موافقة للمعدة... والمياه التي يخالطها جوهر معدني وما يجري مجراه والمياه العلقية فكلها أردأ ولكن في بعضها منافع"[1].

٤. المسكن الصحي وشروطه

أفاض ابن سينا الحديث عن شروط السكن الصحي، فمن جملة ما يقول: "ينبغي لمن يختار المساكن أن يعرف تربة الأرض وحالها في الارتفاع والانخفاض والانكشاف والاستتار، وماؤها وجوهر ماؤها... ويعرف رياحهم هل هي الصحيحة الباردة وما الذي يجاورها من البحار والبطائح والجبال والمعادن ويتعرف حال أهل البلد في الصحة والأمراض... وجنس أغذيتهم... ثم يجب أن يجعل الكوى والأبواب شرقية شمالية ويكون العمدة على تمكين الرياح الشرقية من مداخلة الأبنية وتمكين الشمس من الوصول إلى كل موضع فيها فإنها هي المصلحة للهواء ومجاورة المياه العذبة الكريمة الجارية النظيفة التي تبرد شتاءً وتسخن صيفاً خلافاً للكامنة أمر جيد منتفع به"[2].

وقد أكد ابن خلدون على الرغم من عدم كونه طبيباً، بأن الزحام والهرج هما سببان رئيسان من أسباب سرعة انتقال الأمراض المُعدية خصوصاً أمراض الرئة، ويستعرض بإيجاز أسباب تلوث الهواء في المدن المزدحمة وأخطار ذلك على صحة الأفراد، ويؤكد على ضرورة ترك الفراغات بين الأبنية للتهوية كطريقة للحيلولة دون تلوث الهواء أو للإقلال من التلوث. يقول ابن خلدون "أما الموتان فلها أسباب كثيرة– المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملامسة

---

[1] القانون في الطب. أبو علي الحسين بن سينا. طبعة بالأوفست. مكتبة المثنى، بغداد، ص٩٣.

[2] القانون: المصدر نفسه، ص٩٨-١٠١.

دائمة فيسري إلى مزاجه، فإذا كان قوياً وقع المرض في الرئة... وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الحميات وتمرض الأبدان وتهلك" ثم يقول: "إن تخلخل الهواء والقفر بين العمران ضروري لكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن... ويأتي بالهواء الصحيح"[1].

وينحو ابن رضوان نفس المعنى فيقول: "أول شيء يحتاج إليه في هذا هو أن تكون المساكن والمجالس فسيحة لينحل منها من البخار المقدار الوافي... ويدخل منها شعاع الشمس، وينبغي أن تكون هذه المساكن والمجالس مرخمة أو مبلطة"[2].

٥. الحيوانات والحشرات أسباب للأمراض

جاء ذكر مرض داء الكلب لدى أغلب الأطباء العرب والمسلمين، مثل علي بن العباس المجوّسي، وابن سينا وابن النفيس والدميري وغيرهم، ووصفوه قبل العالم باستير[3] الذي أعلن أنه أول من اكتشفه ووصف اللقاح للتحصين منه. ويتبين مما كتبه الأطباء العرب معرفتهم بأن مرض داء الكلب من الأمراض المعدية التي تنتقل للإنسان عن طريق الكلاب، وهذا جعل المسئولين ينتبهوا إلى خطر الكلاب الضالة على البيئة والإنسان. فمما يُروَى أن الإمام ابن سحنون قاضي القيروان "المتوفى سنة ٢٤٠هـ/ ١٨٥٤م" أمر الشرطة بقتل الكلاب التي تجول بطرقات المدينة[4].

ومما يؤثَر عن الطبيب ابن التلميذ أنه ذكر ضرر الذباب على الجرح قبل اكتشاف المتأخرين له[5]، حيث قال:

---

[1] المقدمة. عبد الرحمن بن خلدون. دار الفكر، ص٢٩٣.

[2] مضار الأبدان: مصدر سابق، ص ٦٦.

[3] الطب عند العرب والمسلمين: تاريخ ومساهمات. محمود الحاج قاسم محمد. الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة ١٩٨٧، ص٢٨١.

[4] تاريخ الطب العربي التونسي. الحكيم أحمد بن ميلاد. مطبعة الاتحاد التونسي للشغل، تونس، ص١٥٣.

[5] عيون الأنباء في طبقات الأطباء. موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة. دار الفكر، بيروت، جـ٢، ص٢٨٣.

لا تُحقـــرنّ عَدوّا لان جَـــانبـــهُ ولَـــو يَكون قَليلَ البَطشِ والجَلـــدِ
فللذُبابـــةِ في الجَرحِ المُمدّ يَـــــدٌ تَنال مَا قَصّـــرَت عَنهُ يَدُ الأســـدِ

وقد عرف الأطباء العرب والمسلمون أن ناقل مرض حبة بغداد أو المـــسماة "البلخيـــة" حشرة تشبه البعوض، وهي ذبابة الرمل. يقول ابن سينا عن ذلك: "والبلخية مـــن جـــنس السعفة الرديئة وربما كان سببها لسعاً مثل البعوض الخبيث"[1]. ويعد هذا من أقدم الإشارات إلى حدوث أو انتقال مرض مستديم ومستوطن بعد لدغة حشرة[2].

وقد أسهب الأطباء العرب والمسلمون في ذكر تأثير عضة الحيوانات والهوام والحـــشرات وكذلك في كيفية التخلص من الأنواع الضارة كالحيات والعقارب والبراغيـــث والبعـــوض والذباب والزنابير والخنافس... إلخ. وكل ذلك لتأمين بيئة صحية خالية من الأمراض.

٦. الرقابة الوقائية ومواجهة التلوث

لما كانت النظافة والطهارة شيئين جوهريين في مسألة الوقاية الصحية وشرطين أساســـيين للقيام بالعبادات بالنسبة للمسلمين، كان ذلك دافعاً قوياً للحفاظ على أن يكون الفرد نظيفاً في كل شيء وكذلك مكان معيشته أيضاً وحمايته من التلوث والأوساخ. وبغية تحقيق ذلك أُنشئ نظام الحَسَبة، حيث تكفّل هذا النظام بالإشراف على المؤسسات العامة، ومن جملتها المؤسسات التي تقدم خدمات صحية. وقد اقتضى هذا النظام تعيين عريـــف- أي موظـــف مسئول- لكل صنعة، وأن يكون ذلك العريف موضع ثقة يتحلى بالأمانة وبالدقة والخبرة في صنعته بصيراً في معرفة الغش والتدليس، وسيطاً بينهم وبين المحتسب يطالعـــه بأخبـــارهم[3] ويحثهم على العمل الجيد ويعترض عليهم في إساءتهم للعمل ويدخل ضمن هؤلاء الأطبـــاء والصيادلة أيضاً.

---

[1] القانون: مصدر سابق، جـــ٣، ص ٢٨٨.

[2] تاريخ مرض الليشمانيا الجلدي ودور العلماء المسلمين فيه. عبد الحافظ حلمي محمد ومنى التقي، محاضرات مـــؤتمر الطب الإسلامي الأول، الكويت ١٩٨٢، ص١٠٦.

[3] نهاية الرتبة في طلب الحسبة. ابن بسام. بغداد، ص١٨.

ويمكن إيجاز أهمية الرقابة الصحية والشروط المطلوبة للحفاظ على النظافة في المساجد والأسواق والطرق ومحلات الأطعمة والحمامات في تراثنا العربي والإسلامي فيما يلي:

٧. المساجد

سعت الدولة إلى حماية بيوت العبادة من الأوساخ والنجاسة، من خلال تنظيفها يومياً من قِبل العاملين بها، وبخاصة في يوم الجمعة[١]، كما ألزمت الدولة صيانة المساجد من الأطفال والمعتوهين، ومنع تناول الطعام بها، أو استخدامها لعمل صناعة معينة[٢].

٨. الأسواق والطرق

ألزمت الدولة أهل الأسواق بالحفاظ على نظافتها وكنسها من الأوساخ والطين الذي قد يجتمع بها، وحرصاً على نظافة الطرق حُذّر من خروج المجاري الخارجية إلى وسط الطريق وأُلزم أصحابها بحفر حفرة داخل الدار لتجميع المياه الوسخة[٣]. ومن وجوه اهتمام الدولة بنظافة المدينة منع رمي الأزبال بالطرق ومنع ترك مياه المطر والأوحال في الطرق من غير مسح... [٤].

٩. محلات الأطعمة

اشترطت الدولة النظافة على أصحاب المطاعم ومعدّي الطعام حرصاً على سلامة الفرد الصحية. فعلى سبيل المثال أوجبت على الخبّاز ألا يعجن العجين بقدميه ولا ركبتيه ولا بمرفقيه، خشية وقوع شيء من عرق بدنه بالعجين، فلا يجوز أن يعجن إلا وعليه لباس خاص، وأن يكون ملثماً وعلى جبينه عصابة وأن يزيل شعر ذراعيه إذ ربما يسقط شيء منه

---

[١] معالم القربة في أحكام الحسبة. ابن الأخوة. مصر، ص٢٦٣.

[٢] نهاية الرتبة، مصدر سابق، ص١٧٥.

[٣] نفس المصدر، ص١٩.

[٤] معالم القربة، مصدر سابق، ص١٢٦.

في العجين[1]، وأوجبوا على عمالة البقالة الاهتمام بنظافة أبدانهم وثيابهم وتغطية قِرابهم التي تستخدم لسقي الناس الماء، وعدم جواز السقي من كوز الزير ومنع إدخال اليد في الزير، ومنعتهم من استقاء الماء من مواضع الأوساخ[2][3].

كما ألزموا أصحاب محلات الأكل بتنظيف آلاتهم بالماء الحار والأشنان يومياً، كما ألزموا بتغطية أواني الطبخ حفظاً لها من الذباب وهوام الأرض[4]، فضلاً عن ضرورة نظافة الحوانيت، إذ غالباً ما يتفقد المحتسب حوانيتهم غفلة للاطلاع على مستوى النظافة وملاحظة المخالفات الصحية[5]. ومن الإجراءات الوقائية التي اتخذتها الدولة حرصاً على صحة المواطنين منع السقائين من سقاية المجذوم والأبرص ومرضى العاهات والأمراض الجلدية[6].

١٠. الحمّامات

ألزمت الدولة أصحاب الحمامات بالحفاظ على نظافة الماء من خلال تنظيف حوض النوبة من الأوساخ المتجمعة، فضلاً عن تنظيف المساقي والقدور من الأوساخ شهرياً[7]. وبلغ الاهتمام بمتابعة تنفيذ الشروط الصحية أن يقوم القيم بغسل الميازر كل مساء بالصابون[8]. ومن الإجراءات الوقائية التي اتخذتها الدولة منع ذوي الأمراض الجلدية كالمجذوم والأبرص من دخول الحمامات[9][10].

---

[1] نهاية الرتبة، مصدر سابق، ص٢١-٢٢.

[2] المصدر نفسه، ص٢٥.

[3] معالم القربة، مصدر سابق، ص١٠٦.

[4] المصدر نفسه، ص١٧٣.

[5] نهاية الرتبة، مصدر سابق، ص١٥.

[6] المصدر نفسه، ص٢٦.

[7] معالم القربة، مصدر سابق، ص٢٤١.

[8] الحمامات العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري. محمد فهد بدري، مطبعة الإرشاد.

[9] نهاية الرتبة في طلب الحسبة. الشيزري، القاهرة، ص٨٨.

[10] صحة البيئة في التراث العربي الإسلامي. دكتور محمود الحاج قاسم محمد، نقيب الأطباء، فرع نينوى، الموصل، العراق. موقع الدورية الطبية العربية، بتصرف.

الفصل الثالث

الحفاظ على البيئة في الإسلام

- العلاقة بين الإسلام والبيئة
- البيئة من منظور إسلامي
- الإسلام وصون البيئة
- حماية البيئة فريضة شرعية
- صحة البيئة في الإسلام
- الوضوء والصحة العامة كنموذج
- غسل الأيدى والأمراض التقليدية والمعاصرة
- تغير المناخ والتصور الإسلامي
- الرسول الأمين ﷺ والبيئة: تأملاتٌ أجنبية

الفصل الثالث

الحفاظ على البيئة في الإسلام

يتناول هذا الفصل: العلاقة بين الإسلام والبيئة، البيئة من منظور إسلامي، الإسلام وصون البيئة، حماية البيئة كفريضة شرعية، صحة البيئة في الإسلام، الوضوء والصحة العامة كنموذج، غسل الأيدى والأمراض التقليدية والمعاصرة، تغير المناخ والتصور الإسلامي، الرسول الأمين ﷺ والبيئة: تأملاتٌ أجنبية.

يهدي الله سبحانه وتعالى في ديننا الحنيف إلى الخير والصلاح والإصلاح، وينهى عن الشر والفساد والإفساد، فالإسلام دين الوسطية في كل شيء. ومن منطلق كونه خاتم الرسالات السماوية للناس كافة كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]، ومن خلال منهجه القويم في أم الكتاب وسنة نبيه الصادق الأمين، فهو دستور حياة شاملة للبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو القاعدة المؤدية إلى الارتقاء بالسلوك المادي والروحي معاً لما فيه خير الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وهو المنهاج الذي يمكن باتباعه بناء الإنسان على الوجه الذى أراده الله خلافة بالصلاح والتعمير على وجه المعمورة.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿... مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ...﴾[2]. وجاءت السنة النبوية لتستكمل مصادر التشريع الذي يوجه إلى طريق الخير والإعمار. يقول الرسول الأمين

---

[1] سورة سبأ: الآية ٢٨.

[2] سورة الأنعام: الآية ٣٨.

ﷺ : "تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه"[1]. ويعد هذا الحديث الشريف دعوة صريحة من الرسول ﷺ بأن نتمسك بكتاب الله وسنة رسوله حتى لا نضل ولا نضلّل، نصون ولا نفسد، نعمر ولا نخرب.

وليس ثمة شك بأن الرسالة الإسلامية اهتمت بالبيئة اهتماماً عظيماً، من منطلق كونها ميراث الأجيال، حيث أودع الله فيها كافة مقومات الحياة. كما أرسى ديننا الحنيف الأسس والمبادئ التي تضبط علاقة الإنسان ببيئته ليتحقق من اتباعها العلاقة المتوازنة التي تصون البيئة وتساعدها على أداء الدور المنوط بها من قِبل الخالق العليم في إعالة الحياة.

وقد أضحت البيئة وما تعانيه من تدهور واستنزاف وسوء استغلال، من القضايا الملحة في وقتنا الراهن، بعد أن وصلت الأمور إلى منعطف حرج يُخشى مع استمراره إلى حدوث مشكلات بيئية لا طاقة للبشرية بها. ولعل ما يواجهه العالم اليوم من مشكلات وكوارث بيئية إن دل على شيء، فإنما يدل على غياب الوعي والحس البيئي وتجاهل البعد الإسلامي الذى يجب أن يحكم السلوكيات والتصرفات تجاه البيئة. فهل يرجع الإنسان عن إفساد البيئة؟. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[2].

١. العلاقة بين الإنسان والبيئة

قضت حكمة الله عز وجل أن يكون الإنسان مستخلفاً في الأرض من قبل أن يطأها. يقول عز من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾[3]، وأن يتمتع بقدرات ونعم لايتمتع بها غيره من المخلوقات. يقول جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ

---

[1] رواه الأمام مالك في الموطأ، باب: النهي عن القول بالقدر، جـ٥، ص١٣٢٣. والحديث حسنه الألباني في "مشكاة المصابيح"، باب: الاعتصام بالكتاب والسنة، جـ١، ص٤٠.

[2] سورة هود: الآية ٦١.

[3] سورة البقرة: الآية ٣٠.

كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1]. كما مكّن الله عز وجل الإنسان في الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[2]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[3].

والاستعمار هنا يدل على طلب العمارة، وهو طلب مطلق من الحق عز وجل. فعمارة الأرض مشيئة إلهية منذ خلق الإنسان. وقد استودع الخالق عز وجل الأرض ثروات لا تحصى، كما استودع الإنسان من أسرار المواهب والملكات والقدرات ما يعتبر كنوزاً ثمينة. وتبدو هنا مهمة الإعمار المبرر الأساس لإصباغ صفة الخلافة على الإنسان واعتباره مخلوق الله المختار، كما أن الاستخلاف بقياس الزمن هو استخلاف مؤقت. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿... وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[4].

وهذه الخلافة في الأرض يترتب عليها مسئولية جسيمة، فهي امتحان يتبعه حساب، ومن ثم ثواب أو عقاب. وقد وردت هذه المعاني في القرآن والسنة، فالابتلاء المرتبط بالخلافة في الأرض نجده في قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

---

(1) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(2) سورة الأعراف: الآية ١٠.

(3) سورة هود: الآية ٦١.

(4) سورة البقرة: الآية ٣٦.

(5) سورة الأنعام: الآية ١٦٥.

وبالإضافة للمعاني السابقة، تخضع هذه الخلافة أيضاً للمراقبة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1]. وتتكرر تلك المعاني في قول رسول الله ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة والله مستخلفكم فيها"[2].

ومن الواضح إذن، أن التصور الإسلامي يدل على أن الخلافة في الأرض تتضمن امتحاناً فيما استُخلف الإنسان فيه، وهل سيتعامل مع مفردات بيئته وفق التوجيه الرباني، أم سيحيد عن الطريق ويفسد في الأرض، وبالتالي تؤول الخلافة إلى قوم أو جيل جديد. إن إحلال قوم بدل قوم يظهر جلياً في الآيتين الكريمتين: ﴿... وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4].

وإذا ما أضفنا إلى إعلام رب العالمين للملائكة باستخلاف الإنسان، بذكره سبحانه تعالى تعليمه لآدم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[5]، يتبين أن العلم هنا حجة على الإنسان، فقد استخلفه الله جل شأنه وبين له وظائف الأشياء. وكما قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "الصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذراتها وصفاتها وأفعالها". فتكون الخلافة في الأرض، بناء على ما

---

[1] سورة يونس: الآية ١٤.

[2] رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري ﷺ كتاب: الرقاق، باب: أكثر اهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان فتنة النساء، جـ٤، ص٢٠٩٨ رقم (٢٧٤٢). وقد قال الإمام النووي في شرحه لمعنى "مستخلفكم فيها" في هذا الحديث، أي "جاعلكم خلفاء من بعد القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته، أم بمعصيته وشهواتكم".

[3] سورة الأعراف: الآية ٦٩.

[4] سورة الأعراف: الآية ٧٤.

[5] سورة البقرة: الآية ٣١.

تقدم من الآيات والأحاديث، عن علم وتصور، فيقع على كاهل الإنسان بموجبها العناية بمحيطه والرفق بالبيئة التي يدور في رحابها.

ويدل العديد من الآيات على تسخير السماوات والأرض والبحار والأنهار والرياح والدواب والأنعام من أجل الإنسان، فيما يعد دعامة الاستخلاف في الأرض، ورافداً يعينه ويقويه على أداء وظيفته الأساسية في الدنيا، وهي العبودية لله تعالى.

ويبين القرآن الكريم أن عمارة الأرض فحسب، بمعزل عن المنهاج الرباني ورفضه، سيؤدي لا محالة إلى الهلاك: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]. وعمارة الأرض هي بما ينفع الناس وليس بما يلحق بهم الأذى، وبما لا يؤثر سلباً في البيئة.

ويشير القرآن الكريم إلى أن كل شيء على قدر معين في ذاته وخصائصه، والقدر تحديد كل محدود بحده الذي يوجد به. هذا التقدير بالغ الدقة، الذى هو من صنع لدن حكيم خبير، هو الذي يعطي لكل مكون من مكونات البيئة طبيعته الكمية والنوعية ووظيفته وعلاقته بالمكونات الأخرى، كما يعطي للبيئة ككل توازنها وقدرتها على إعالة الحياة، وهي المهمة الأساسية التى خلقت البيئة من أجلها.

وقد ضَمن الإسلام مجموعة من القواعد والمبادئ القويمة التى تكفل ضبط سلوكيات الإنسان في تعامله مع بيئته بما يصونها ويحافظ عليها. من هذه القواعد والمبادئ الإسلامية:

١. ١. الاعتدال ونبذ الإسراف

من مبادئ الشريعة الإسلامية الأساسية سلوك الطريق الوسط او المعتدل في التكليف، فهو دين الوسطية والاعتدال، لا إفراط ولا تفريط ولا إسراف ولا تقتير. يقول الحق تبارك

---

[1] سورة الروم: الآية ٩.

وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾[1]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[2]. فقد نهى الإسلام عن الإسراف بكل أشكاله السلبية سواء في المأكل أم المشرب وغير ذلك من الموارد الطبيعية الأخرى لما فيه من أضرار، فالإسراف في نظر الإسلام كل سلوك يتعدى الحدود المعقولة أو المقبولة في أي أمر من الأمور. وإذا ما طبّق هذا المفهوم على البيئة فإنه يتمثل في الاستخدام المفرط أو الجائر لمواردها، ومن ثم يصبح هذا السلوك غير المرغوب مصدر ضرر وخطورة على البيئة ومواردها، كما أنه نوع من الأنانية وعدم التبصر والحكمة في تحمل المسئولية، لأنه مدعاة لسرعة استنزاف موارد البيئة. قال تعالى: ﴿... وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[4]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[5]. وقد توعد الله المسرفين بالهلاك. يقول عز من قائل: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[6].

ومن أحاديث الرسول ﷺ التي تحض على الاعتدال والاقتصاد ونبذ الإسراف: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "طعام الواحد كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي

---

(1) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(2) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(3) سورة الأعراف: الآية ٣١.

(4) سورة الإسراء: الآية ٢٦-٢٧.

(5) سورة الفرقان: الآية ٦٧.

(6) سورة الأنبياء: الآية ٩.

الأربعة"[1]، وعن مقدام بن مَعد يَكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكَلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه"[2].

ومما يدل على نهي الإسلام عن الإسراف بكافة أشكاله، أنه ينهي عن الإسراف حتى في أعمال الخير والعطاء والعبادة. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿... كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3]. وقد نزلت هذه الآية الكريمة عندما أنفق ثابت بن قيس جذاذ خمسمائة نخلة و لم يترك لأهله شيئاً.

وتمثل هذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة دعوة صريحة إلى الاعتدال والاقتصاد وحسن استغلال موارد البيئة من ناحية، ونبذ الاسراف والاستخدام الجائر والتقتير من ناحية أخرى. ولما كان المفسرون يتفقون في أن العبرة في النص القرآني والحديث النبوي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن هذه الدعوة إلى الاعتدال ونبذ الاسراف تشمل كل سلوك إنساني. فالحق تبارك وتعالي عندما يمنح الإنسان نعمه ويفضله على سائر مخلوقاته، إنما يريد منه المحافظة على ما وهبه الله من نعم لاتحصي، فلا يبددها فيما لاينفع بل يجب أن يلتزم جانب الاعتدال والاتزان في استخدامها وتجنب الإسراف فيها. فحد الاعتدال والاتزان هو حد الإسلام الذي يجب الالتزام به في كل السلوكيات تجاه البيئة وغيرها.

---

[1] رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الأطعمة، باب: طعام الواحد يكفي الإثنين، جـ٥ ص٢٠٦١، رقم (٥٠٧٧). وأخرجه مسلم في صحيحه،كتاب: الأشربة، باب: فضيلة المواساة في الطعام القليل وأن طعام الاثنين يكفي الثلاثة ونحو ذلك، جـ٣، ص١٦٣٠، رقم (٢٠٥٨).

[2] رواه الترمذي في سننه عن المقدام،كتاب: الزهد، عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، جـ٤، ص٥٩٠، رقم (٢٣٨٠). كما رواه ابن ماجة في سننه عن المقدام بن مَعد يَكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس". سنن ابن ماجة، كتاب: الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، والحديث صححه الألباني، جـ٣ ص١١١، رقم (٣٣٤٩).

[3] سورة الأنعام: الآية ١٤١.

ولاشك في أن بداية دعوة الإسلام إلى الاعتدال ونبذ الإسراف منذ أربعة عشر قرناً بدأت تدركها مؤخراً المجتمعات غير الإسلامية في الشرق والغرب، حيث بدأت تنادي بالاستخدام العاقل أو الراشد sound utilization ونبذ الاستخدام الجائر أو المفرط "الإسراف" over utilization، بعد أن بدأ الإسراف في استخدام موارد البيئة يهدد البشرية بأخطار كثيرة. فمثلاً أدى الإسراف في قطع الأشجار والنباتات إلى بروز مخاطر كثيرة مثل انجراف التربة، الفيضانات المدمرة، تدهور الدورة المائية ونظم المطر، انتشار التصحر، اختلال دورة الأكسجين/ ثاني أكسيد الكربون وغيرها. كما أدى الإسراف في استخدام المياه إلى مشكلات عديدة مثل تملح التربة، سرعة نضوب موارد المياه الجوفية، نقص موارد المياه وغيرها.

١. ٢. التعمير ونبذ الإفساد

الفساد بمعناه الشامل هو كل سلوك بشري يفسد نعم الله ويحيلها من مصدر منفعة وحياة إلى مصدر ضرر وخطورة، أي أنه سلوك على غير ما أمر به الله سبحانه وتعالى. وبقدر تمرد الإنسان على حركة الحياة يحدث الفساد والإفساد، ومن ثم فقد نهى الإسلام عنهما لما فيهما من ضرر كبير، وتوعد المفسدين بغضب الله وسخطه. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿... كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[1]، ﴿... وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[3]، وقد نزلت هذه الآية الكريمة في الأخنس بن شريق الذي أقبل على النبي ﷺ وأعلن إسلامه، ثم خرج فمر بزرع فأحرقه وحمر فعقرها، فذكر الله أمره، ذلك إن ما فعله يتعارض مع

---

[1] سورة البقرة: الآية ٦٠.

[2] سورة الأعراف: الآية ٨٥.

[3] سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

السلوك الإسلامي القويم. يقول عز من قائل: ﴿... وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]، ﴿... فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[2]، ﴿... وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

ومن أحاديث الرسول ﷺ التي تنهى عن الفساد والإفساد، دعوته إلى المحافظة على الماء طاهراً نقياً وعدم إفساده بإلقاء النجاسة والمخلفات فيه ليظل مصدر حياة وخير للبشرية. عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ "نهى عن البول في الماء الراكد"[4]، وعن جابر قال: "نهى رسول الله ﷺ أن يبال في الماء الجاري"[5]. وفى حديث آخر، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه"[6]. فالتبول في الماء الراكد يجعله بيئة خصبة لتكاثر الميكروبات التي تساعد على انتشار الأمراض المعدية، كما أن التبول في الماء الجاري يؤدي إلى إلحاق الضرر بالآخرين حيث تصلهم المياه ملوثة، وهو سلوك يتنافي مع حرص الإسلام على ألا يضر المسلم نفسه أو الآخرين.

ومن أسف أن يرتكب الإنسان مخالفات شرعية كثيرة عندما يسمح بضخ مياه المجاري الصحية غير المعالجة مثلاً، وهي مليئة بالمواد الكيميائية والعضوية والميكروبات الضارة إلى

---

[1] سورة القصص: الآية ٧٧.

[2] سورة الأعراف: الآية ١٠٣.

[3] سورة المائدة: الآية ٦٤.

[4] رواه النسائي في السنن الصغرى، وقال الألباني صحيح، جـ١، ص٣٤، رقم (٣٥).

[5] أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، جـ١، ص٢٥١. رواه الطبراني في المعجم الأوسط، جـ٢، ص٢٠٨.

[6] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: النهي عن البول في الماء الدائم، جـ١، ص٢٣٥، رقم (٢٨٢). ورواه البخاري عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه". رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الوضوء، باب: البول في الماء الدائم، جـ١، ص٩٤، رقم (٢٣٦).

البحار والأنهار والبحيرات، كما تُرتكب نفس المخالفة عندما يسمح بضخ مخلفات المصانع أيضاً في البحار والأنهار في تجاهل لضررها البالغ على الأحياء المائية وعلى استخدام مياهها للأغراض المختلفة في خدمة الإنسان.

١. ٣. الاستزراع وحماية الأحياء

اهتم الإسلام بالبيئة الحيوية من نبات وحيوان وطير وغيرها اهتماماً كبيراً، لما لها من أهمية كبيرة في إعالة الحياة وتحقيق التوازن البيئي. فقد أودع الله سبحانه وتعالى في مكونات البيئة الحيوية الكثير من المنافع الظاهرة وغير الظاهرة التي سخرها بقدرته وحكمته لخدمة الإنسان وتوفير الكثير من متطلبات حياته. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[1]، ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[2]. ﴿... وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[3]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ...﴾[4]. وما بالأرض كله مُسخَّر للإنسان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[5].

---

(١) سورة يس: الآية ٨٠.

(٢) سورة النحل: الآية ٥-٦.

(٣) سورة النحل: الآية ٨٠.

(٤) سورة النحل: الآية ١٤.

(٥) سورة الحج: الآية ٦٥.

وإذا تأملنا المنافع التي تقدمها البيئة الحيوية للإنسان نجدها كثيرة وبالغة الأهمية، إذ تلعب النباتات دوراً مهماً في إحداث التوازن في مكونات الهواء خاصة غازي الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، كذلك التوازن في الدورة المائية، وحماية التربة من الانجراف لما للغطاء النباتي من قدرة عالية على مقاومة عوامل الجرف المائي والهوائي، كما تمد البيئة الحيوية الإنسان بمنافع كثيرة منها عملها كمخزن للسلالات الوراثية التي لا غنى عنها في استمرار برامج تطوير وتهجين سلالات جديدة ذات إنتاجية عالية ومقاومة للآفات والأمراض النباتية والحيوانية. كما أن للبيئة الحيوية أهمية طبية حيث تضم نباتاتها وحيواناتها الكثير من المواد والعناصر الفعالة في صناعة الدواء.

هذا ولا يعد الاهتمام باستزراع النباتات وحمايتها وليد العصر ولا من محدثات الزمن، بل دعا اليه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، فقد كان الرسول ﷺ يرغّب أصحابه ويدعوهم إلى استزراع النباتات وحمايتها والمحافظة عليها. من أحاديث الرسول ﷺ في هذا المجال: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[1]. وعن جابر بن عبدالله الأنصاري عن النبي ﷺ قال: "من أحيا أرضاً دَعْوَةً من المصر أو رَمْيَةً من المصر فهي له"[2].

وعن عائشة- رضي الله عنها- عن النبي ﷺ : "من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق". قال عروة: "قضى به عمر ﷺ في خلافته"[3]. وروي أبو داود عن عروة قال: "أشهد أن رسول الله ﷺ قضى أن الأرض أرض الله والعباد عباد الله ومن أحيا مواتاً فهو أحق به"[4]. وعن رسول الله ﷺ : "ما من أمرئ يحيي أرضاً فيشرب منه كبد حرى أو يصيب منه عافية

---

[1] رواه البخاري في كتاب: الحرث والمزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه، جـ٢، ص٨٧١، رقم: (٢١٩٥)، كما أخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، جـ٣، ص١١٨٩، رقم: (١٥٥٣).

[2] رواه الإمام أحمد في مسنده، جـ٢٣، ص١٨٣.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المزارعة باب: من أحيا أرضاً مواتاً، جـ٢، ص٨٢٣.

[4] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الخراج، باب: في إحياء الموات، جـ٣، ص١٤٣، رقم (٣٠٧٨).

إلا كتب الله به أجراً"[1]. وعن أنس ﷺ : قال رسول الله ﷺ : "إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها"[2]. ويدل المعنى فيما يدل على أنه حتى عند انتفاء كل أمل لدى للبشر، على الفرد أن يحافظ على نمو الطبيعة، إيماناً بأن الطبيعة حسنة في ذاتها حتى لو لم يستفد البشر منها بصورة آنيّة. وتزخر السنة النبوية بالدعوات المتكررة للحفاظ على أديم الأرض ومن ثم الحد من أثر بعض الظواهر الطبيعية كالانجراف والتصحر والجفاف.

وفي وصايا أبو بكر الصديق ﷺ ليزيد بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- عندما بعثه على رأس جيش إلى الشام، خلاصة الأدب الإسلامي في الحرب: "وإني موصيك بعشر: لا تقتلن إمرأة، ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكله، ولا تغرقن نخلاً ولا تحرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن"[3].

فهذه الوصايا تدل على أن من لا علاقة له بالحرب، ليس للمسلمين أن يؤذوه، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً. وبناء على ذلك، فإن ما يطلق عليها "أسلحة التدمير الشامل" في عصرنا الراهن، والتي تضم تحت لواءها الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية وغيرها، تتنافى مع العقيدة الإسلامية، فالإسلام لا يبيح دماراً شاملاً لمخلوقات الله عز وجل، ولعل أقصى ما يمكن وجوده هو قوة تردع أعداء المسلمين من الاعتداء عليهم.

لذا فقد اهتم الإسلام بالنبات والحيوان والطير. فإذا كان صيد الحيوانات برية كانت أم مائية حلالاً طيباً، فقد نهى الإسلام عنه طالما كان لغير منفعة أو كان فيه إسراف يهدد وجود هذه الحيوانات التي لم تخلق عبثاً ولكل منها دور مهم في منظومة الحياة. ويحثّ الرسول ﷺ الأفراد على حماية البيئة وموارد الطبيعة وعدم العبث بها أو إساءة استغلالها فيما لا طائل منه، والعمل على خلق السلوك المسئول تجاه تلك الموارد، لكونها خلقت لخدمة

---

[1] رواه البخاري في المعجم الكبير عن أم سلمة- رضي الله عنها، جـ٢٣، ص٣٩٧.

[2] رواه أحمد في مسنده عن أنس، جـ٢٠، ص٢٥١، ورواه البخاري في الأدب المفرد عن أنس عن النبي ﷺ قال: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها". وقال الألباني صحيح، ص ١٦٨.

[3] أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب: الجهاد، باب: النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، جـ٣، ص٦٣٦، رقم (١٦٢٧).

الإنسان ومنفعته، فقال ﷺ : "من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة"[1]، و"من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول يا ربّ إنّ فلاناً قتلني عبثاً و لم يقتلني منفعةً"[2].

ولنا في قصة الرجل الذي دخل الجنة لأنه سقى كلباً كان يلهث من شدة العطش، وقصة المرأة التي أدخلت النار لأنها حبست هرة و لم تطعمها أو تتركها تأكل من خشاش الأرض، ما يدل على دعوة الإسلام إلى السلوكيات الحسنة تجاه البيئة الحيوية، فهي سلوكيات تسعى للمحافظة على البيئة ورعايتها وصيانتها من كل عبث.

٢. البيئة من منظور إسلامي

يرصد الباحث دكتور صالح محمود وهبي في كتابه "البيئة من منظور إسلامي" اهتمام الدين الإسلامي بالبيئة بمفهومها الواسع ومواردها بشقيها الحية وغير الحية، وأظهر أسس التعامل معها بحيث يمكن حمايتها والحفاظ عليها، ونهيْ الإسلام عن الاسراف بكل أشكاله السلبية سواء في المأكل والمشرب وغير ذلك من الموارد الطبيعية الأخرى، وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

ويشير الباحث إلى التوازن البيئي في القرآن الكريم فيقول: "إن جميع المخلوقات في الكون خلقت بقدر وميزان معلوم وبدون إفراط أو تفريط، وهنا تتجلى حكمة وإبداع الخالق. فالاشعاع الشمسي الذي يصل إلى الأرض يصل بقدر معلوم، حيث يقوم الغلاف الجوي بتنظيم درجة الحرارة على الكوكب، وكذلك الهواء والماء والغازات والنباتات والطيور

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص، جـ١١، ص١١٠، رقم (٦٥٥١)، وجـ١١، ص٥٤٨، رقم (٦٩٦٠) عن عبد الله بن عمرو. وأخرجه النسائي في السنن الصغرى، عن عبدالله بن عمرو، جـ٧، ص٢٣٩، رقم (٤٤٤٥).

[2] أخرجه النسائي في السنن الكبرى، جـ٣، ص٧٣، رقم (٤٥٣٥). ورواه أحمد في مسنده، جـ٣٢، ص٢٢٠، رقم (١٩٤٧٠).

والحشرات محددة نسبها". وقد قال الله تعالى: ﴿... قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]. فالكون كله يسير وفق حسبان نظام محسوب بدقة: الشمس والكواكب والقمر والنجوم. وقال الله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[2]. أما الماء فيجعله الله سبحانه وتعالى أصل كل كائن حي، كما خلقه بقدر محدد. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾[3].

ويتطرق الباحث في عرضه إلى مفهوم البيئة في الإسلام فيقول: "إن مفهوم البيئة في الإسلام هو مفهوم شامل فهي تعني الأرض والسماء والجبال وما فيها من مخلوقات، بما فيها الإنسان وما يحيط به من دوافع وعواطف وغرائز. ويتسم مفهوم البيئة في الإسلام بشموليته فهو يضم كل مخلوقات الله من البحار والأنهار والجبال والنباتات والحيوانات والحشرات، وهذه المخلوقات سخّرها الله سبحانه وتعالى للإنسان".

ويذكر الباحث أهم القواعد التشريعية الإسلامية التي يمكن أن تبنى عليها جميع الاجراءات والتدابير لحماية البيئة والمحافظة عليها، نوجزها فيما يلي:

. الحفاظ على البيئة واجب ديني على كل فرد، كما أنه واجب اجتماعي يقوم به كل مسئول في مؤسسته.

. تعد التوعية الدينية ضرورية لضمان حماية البيئة، ويجب أن تشمل جميع أفراد المجتمع على مختلف مستوياتهم، من خلال الدعوة إلى عدم التبذير في استهلاك الموارد أو التعرض لها دون وجه مشروع وكذلك حماية البيئة من التلوث.

. العناصر البيئية ملك مشترك لأفراد الجماعة، ومن حق كل فرد الانتفاع منها بقدر حاجته دون الإضرار بحق الآخرين، وتقدر الحاجة هنا بقدرها كماً وكيفاً.

---

[1] سورة الطلاق: الآية ٣.

[2] سورة الرحمن: الآية ٥.

[3] سورة المؤمنون: الآية ١٨.

. من واجب الحاكم درء المفاسد لتحقيق المصالح العامة للمجتمع، ومصلحة الجماعة والأمة فوق مصلحة الفرد. وللدولة الحق في إجراء جميع ما تراه مناسباً لمنع الضرر أو تقليله قبل حدوثه مع قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" أو سدّ الذرائع المؤدية إلى الفساد أو العبث بمفردات البيئة.

وحماية البيئة مسئولية كل إنسان، فهو مسئول أمام الله عن نفسه وعن أسرته ومجتمعه. يقول رسول الله ﷺ : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"[1]. وقال أيضاً "الطهور شطر الإيمان ... "[2].

إن الواقع البيئي في الكرة الأرضية في خطر شديد، جراء سلوك الإنسان الجائر تجاه الموارد الطبيعية التي سخرها الله لعباده. وقد أصبحت هذه الموارد مهددة بالاستنزاف خلال وقت قريب في حال استمرار التعدي عليها بهذه الطريقة الجائرة، كما تفاقمت المشكلات البيئية مثل تلوث الماء والهواء والتربة، وتأثرت الغابات والطاقات والتنوع الحيوي الحيواني والنباتي.

وعن الاسلام والحفاظ على البيئة البشرية يقول الباحث: "إن موقف الدين الاسلامي من تعاطي الخمور والمخدرات والتمسك بالقيم والمبادئ الإسلامية من الأمور المساعدة على تقليل ذلك التعاطي، كما أكد الأطباء أن العلاج بالإيحاء الديني يساعد المدمن على التخلي عن المخدرات، إذ تبين أن ٨٣% من المدمنين المعالجين يفضلون الجلسات لأن شخصية المدمن تتسم بالقابلية للإيحاء. ويساعد الوازع الديني في تقوية الإرادة وتقبل العلاج وردع من لديهم رغبة في الرجوع إلى المخدر".

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر، كتاب: الاستقراض وأداء الديون، باب: العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، جـ٢، ص٨٤٨، رقم (٢٢٧٨). وأخرجه مسلم في صحيحه عن ابن عمر- رضي الله عنهما- كتاب: الإمارة، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، جـ٣، ص١٤٥٩، رقم (١٨٢٩).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، جـ١، ص١٤٠، رقم (٥٥٦).

وعن التدخين وما شابهه يقول الباحث إنه ظاهرة تضيع المال وتضر الفرد والأسرة والمجتمع. عن أم سلمة قالت: "نهى النبي ﷺ عن كل مسكر ومفتر"[1]. وقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً للشك أن التدخين له أضرار هائلة على الصحة ناهيك عن الأضرار النفسية والمادية والاجتماعية.

وتدور نهاية البحث عن دور الدين في الوقاية من الإيدز فيقول: "لقد حرمت الشريعة الإسلامية استخدام الغريزة الجنسية في غير ما خلقت له، فلا يجوز إرضاء هذه الغريزة بطريقة غير طبيعية، فقد عاقبت مرتكب الزنا بالرجم إذا كان محصناً وبالجَلد إن كان غير محصن. فالالتزام بالتعاليم الدينية والابتعاد عن صور الشذوذ وعدم تعدد الشريك يعدّ ضمانة أساسية للوقاية من الإصابة بالإيدز"[2].

وقد نهجت السنّة النبوية منهجاً فريداً في الحفاظ على البيئة، وقد تمثل هذا المنهج في حثّ الرسول ﷺ المسلمين على الاهتمام بالغرس والزرع، وربطها بالأجر، وجعل غرس الأشجار صدقة جارية ينتفع بها الإنسان بعد موته بقوله: "سبع يجرى للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته، من علّم علماً أو كرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس شجرة، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً، يستغفر له بعد موته"[3]. والعكس بالعكس، فنعلم ما يؤدي إليه اجتثاث الأشجار أو حرقها مثلاً من خطر بيئي عظيم يواجهه العالم اليوم وهو تصحر وجدب الأراضي القابلة للزراعة.

وتدعو تعاليم الاسلام إلى احترام البيئة ومواردها مهما بدت منفعتها قليلة، فلا تفرقة بين مورد اقتصادي كبير أم قليل العطاء، فالكل نعمة من الله عز وجل والكل يستحق التقدير والامتنان. وقد يؤدي سوء استغلال البيئة إلى مشكلات خطيرة. ويُذكَر هنا المثال الشائع بدولة الصين التي شنّت حملة خلال النصف الثاني من القرن العشرين لإبادة العصافير، التي كانت تتغذى من محصول الأرز، حرصاً منها على الحفاظ على الإنتاج. وحينما قامت بذلك

---

[1] رواه أبو داود في سننه عن أم سلمة، كتاب: الأشربة، باب: النهي عن المسكر، جـ٣، ص٣٧٠، رقم (٣٦٨٨).

[2] البيئة من منظور إسلامي. دكتور صالح محمود وهبي. دار الفكر، دمشق، بتصرف وزيادة.

[3] أورده الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير، وقال: رواه البزار عن أنس وهو حسن، ص٥٩٢.

حصلت على محصول وفير لبضع سنين ظهرت بعدها الآفات من الديدان الضارة التي كانت تتغذى العصافير عليها، فأتت على المحاصيل وأبادتها، فخسرت الدولة بذلك خسارة فادحة، اضطرت بعدها إلى استيراد أسراب من العصافير وتربيتها كي تقيها شر تلك الديدان[1].

وفي هذا الحدث إساءة في البدء لموارد الطبيعة وعدم مراعاة لنظام التوازن البيئي. والله عز وجل خلق مختلف الكائنات لتؤدي رسالة بعينها في الحياة، فلو قُطعت الصلة بين تلك الكائنات والغاية التي خلقت من أجلها لاضطرب النظام البيئي الحياتي، فالله تعالى هو الأعلم بخلقه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2]، ويعلم الله تعالى أن بعض الموارد يصلح استخدامه في شأن ما ولايصلح أو يقل نفعه في شأن آخر.

ونرى في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة منهلاً عذباً ودوراً فاعلاً في رعاية البيئة والمحافظة عليها وحسن استغلالها. فقد ذكرت نصوص القرآن والسنّة بعض عناصر البيئة مرغبة في المحافظة عليها تارة، ومرهبة من تدميرها وإفسادها تارة أخرى. وقد كان الإنسان هو سبب الفساد بمختلف صنوفه، الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والبيئي وغيره، ويبدو ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

لذا فإن تربية الانسان وصياغة نظرته إلى الحياة صياغة موضوعية سليمة تتناسب ومنهج القرآن الكريم وتتفق ودوره في الكون والحياة هي الطريق الأمثل إلى التغيير الرباني إلى الأفضل: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾[4].

---

[1] ملامح من الرؤية الاسلامية في حماية البيئة. مجلة الكلمة "تعنى بشئون قضايا الفكر الإسلامي وقضايا العصر والتحدد الحضاري". صالح العلي، بتصرف وزيادة.

[2] سورة الملك: الآية ١٤.

[3] سورة الروم: الآية ٤١.

[4] سورة الرعد: الآية ١١.

٣. الإسلام وصون البيئة

في إطار معالجة التلوث أرسى الإسلام جملة قواعد مثل: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، وكذلك: "لا ضرر ولا ضرار"، وهي تمنع المُفسد من فساده وتحمّله نتيجة ما يفسد، كما أرسى الإسلام قاعدة "سد الذرائع على الفساد"، وهي قاعدة نفيسة تمنع الإنسان من الاعتداء على البيئة وإلحاق الفساد بها وبغيره من المنتفعين بها.

وحض الإسلام على نظافة الطعام والشراب، فقال رسول الله ﷺ : "غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء"[١].

وحضّ على نظافة المساجد فقال رسول الله ﷺ : "عرضت عليّ أعمال أمتي، حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تُدفن"[٢].

وأمر أيضاً بقتل بعض الكائنات الضارة لما فيها من أذى للناس، فقال رسول الله ﷺ : "خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم، الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحديا"[٣].

وهناك قرابة وتوافق بين الإنسان وعناصر الطبيعة، كالنخيل والأعناب. قال الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

[١] رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله ﷺ كتاب: الأشربة، باب: الأمر بتغطية الإناء وإيكاء إلقاء وإغلاق الأبواب وذكر اسم الله عليها وإطفاء السراج والنار عند النوم وكف الصبيان والمواشي بعد المغرب، جـ٣، ص١٥٩٦، رقم (٢٠١٤).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه، عن أبي ذر ﷺ، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها، جـ١، ص٣٩٠، رقم (٥٥٣).

[٣] رواه مسلم في صحيحه عن عائشة- رضي الله عنها، كتاب: الحج، باب: ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم، جـ٢، ص٨٥٦، رقم (١١٨٩).

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ : "أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران فأطعموا نسائكم الوالد الرطب فإن لم يكن رطباً فتمر"[2].

وحتى الجماد من مخلوقات الله، له مع الإنسان علاقة مودة وإعزاز، فقد قال ﷺ عن جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه"[3].

وتقوم العلاقة في الإسلام بين الإنسان والطبيعة على الأسس التالية:

. الجميع مخلوقات الله: فالخالق واحد وكل المخلوقات تعبد الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[4].

. كل ما في الكون مسخّر للإنسان المكرّم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[5]، حتى يقوم الإنسان بواجبات الاستخلاف في الأرض: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[6]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى

---

[1] سورة النحل: الآية ٦٧.

[2] أورده الألباني في السلسلة الضعيفة، جـ١، ص٤٢٨، رقم (٢٦٣).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس ﷺ، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الخدمة في الغزو، جـ٣، ص١٠٥٨، رقم (٢٧٣٢). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: أحد جبل يحبنا ونحبه، جـ٢، ص١٠١١، رقم (١٣٩٣).

[4] سورة الإسراء: الآية ٤٤.

[5] سورة الإسراء: الآية ٧٠.

[6] سورة النحل: الآية ١٢.

ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، ولا يوجد شيء خُلق عبثاً: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[3]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ...﴾[4]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[5]، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ...﴾[6].

. الانتفاع بالموجودات واستغلالها واستثمارها. قال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[7]، ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾[8].

. حماية الكون وإصلاحه والرفق به وعدم إفساده. قال عز من قائل: ﴿... وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[9]، ﴿... كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا

---

[1] سورة الجاثية: الآية ١٣.

[2] سورة القمر: الآية ٤٩.

[3] سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

[4] سورة الحجر: الآية ٨٥.

[5] سورة الأنبياء: الآية ١٦.

[6] سورة الحديد: الآية ٢٥.

[7] سورة الملك: الآية ١٥.

[8] سورة هود: الآية ٦١.

[9] سورة الأعراف: الآية ٣١.

﴿تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[1]، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾[2].

وما من شك بأن حسن استغلال مكونات البيئة الطبيعية والمشيدة وصيانتها فيه نفع كبير للبشرية، كذلك فإن سوء استغلالها والعمل على سرعة استنزاف مواردها فيه ضرر بالغ للأجيال الحالية والمستقبلية، وهو بالتالي كفر بأنعم الله. ولاريب أن ذلك مدعاة إلى المآسي والكوارث والجوع والخوف. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[3]. أيضاً فإن استغلال موارد البيئة لتحقيق منفعة ذاتية ومؤقتة على حساب الإضرار بتلك الموارد بإفسادها واستنزافها يعد أمراً منهياً عنه في الإسلام، انطلاقاً من القاعدة الفقهية الإسلامية "درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة"، بمعنى أن منع الضرر والفساد مقدم على أي منفعة عند استغلال البيئة، وهذا ما بدأ العالم المتقدم يدركه مؤخراً كوسيلة مهمة لحماية البيئة وصيانتها، عندما طرح فكرة تقويم المردود البيئي Environmental Impact Assesment عند استغلال موارد البيئة. ويعني هذا المفهوم ضرورة تقييم أثر أي مشروع على البيئة، فإذا تبين ضرره بعناصرها يتم تعديله لتفادي هذا الضرر، وإذا لم يتحقق ذلك يُلغى المشروع من منطلق أن المحافظة على موارد البيئة مقدمة ومفضلة على المنفعة الاقتصادية التي كثيراً ما تكون مؤقتة. فالمحافظة على البيئة من المقومات الأساسية والضرورية لإنجاح مشروعات التنمية واستمرارها، ومعنى هذا أن فكرة تقويم المردود البيئي التي تعكس فلسفة القاعدة الفقهية الإسلامية سالفة الذكر "درء المفسدة..." تؤكد أصالة الفكر الإسلامي في صيانة البيئة وحمايتها.

---

[1] سورة الأنعام: الآية ١٤٢.

[2] سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

[3] سورة النحل: الآية ١١٢.

يقول الدكتور نصر فريد واصل مفتي مصر الأسبق: "أمر الإسلام بكل خير، ونهى عن كل شر، وأمر بسائر الآداب ومحاسن الأخلاق. ومن الأشياء التي أمر بها الدين القويم المحافظة على البيئة، وهذه المحافظة في مصلحة الفرد والمجتمع. وقد جاءت الأديان السماوية كلها تدعو الإنسان إلى المحافظة على البيئة، وتحرم عليه تلويثها وإفسادها، لأن الله خلقها من أجله وسخرها لخدمته ومنفعته. والذي يتدبر الآيات القرآنية من قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، يدرك تماماً أن الكون مسخر بأمر الله للإنسان، فيجب عليه أن يحافظ على نظافته ونظامه الدقيق البديع الذي خلقه الله عليه".

إن الإسلام باعتباره الدين الخاتم لكل الأديان، جاء يحث كافة الناس على المحافظة على البيئة ويدعوهم إلى عدم تلويثها أو إفسادها. فحرّم التبول أو التبرز أو إلقاء القاذورات أو جثث الحيوانات أو مخلفات المصانع أو المدن في مجرى المياه خشية تلويثها فيضر ذلك الإنسان والحيوان وغيرهما من مخلوقات الله. كما جعل النبي ﷺ تنظيف الطريق مما به من أذى، كالقمامة وعوادم وسائل النقل الضارة وإماطة الأذى في مجمله عنها، مما يحصل به الثواب، فقال ﷺ : "إذا أبيتم إلا الجلوس في الطريق فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال غض البصر، ورد السلام، وإماطة الأذى عن الطريق"[2]. وإماطة الأذى كلمة جامعة لكل ما فيه إيذاء الناس ممن يستعملون الشوارع والطرق.

---

[1] سورة النحل: الآية ٥-١٤.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: أفنية الدور والجلوس فيها، جـ٢، ص٨٧٠، رقم (٢٣٣٣). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: اللباس والزينة، باب: النهي عن الجلوس في الطرقات وإعطاء الطريق حقه، جـ٣، ص١٦٧٥، رقم (٢١٣١). وقد أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

وعلى المسلم أن يكون حريصاً كل الحرص على تنفيذ تعاليم دينه الحنيف، وأن يدرك إدراكاً كاملاً أهمية المحافظة على نظافة البيئة وحرمة إفسادها لأي سبب من الأسباب، لتظل خالية له ولكل إنسان يعيش معه فيها من مسببات الأمراض التي تضر بالأفراد والجماعات[1].

٤. حماية البيئة فريضة شرعية

في مساهمة لتجلية النظرة الإسلامية إلى البيئة وإصلاحها والمحافظة عليها فِكراً وتطبيقاً أتى كتاب "رعاية البيئة في شريعة الإسلام" للدكتور يوسف القرضاوي، ليوضح الموقف الإسلامي الأصيل من القضية البيئية. وقد احتوى الكتاب على حشد كبير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآراء الفقهية في شأن رعاية البيئة. والكتاب في حقيقته بحث في نحو ٢٦٠ صفحة تقدم به كاتبه إلى "المنتدى العالمي للبيئة من منظور إسلامي" الذي انعقد في مدينة الرياض السعودية العام ٢٠٠٠ ويقع في ستة فصول.

ولتوصيف رؤية الإسلام للبيئة يقول الدكتور القرضاوي: إن البيئة خُلقت مهيأة لتحقيق مصلحة الإنسان وتوفير حاجاته، وإن الله تعالى خلقها بطريقة تفرض عليها أن تتكامل وتتعاون مع بعضها البعض، ومن ثم فالحفاظ على أن يؤدي كل من مكوناتها دوره المنوط به يعتبر أمراً شرعياً، وذلك حتى لا يحدث خلل في الكون. والناظر إلى الإسلام عقيدة وشريعة يجد أن رعاية البيئة تتصل بعدد من العلوم الإسلامية، وفي مقدمتها علم أصول الدين، الذي يرى أن البيئة مخلوقة مثل الإنسان وأنها مكلفة بالسجود لله تعالى وتسبيحه ولكن بطريقة يعلمها الله تعالى، فالإنسان ليس إلهاً في الكون ولكنه مخلوق مثل بقية الأشياء المحيطة به، إلا أن الإنسان مميز عليها بالعقل وبالإرادة. وينطلق من هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون أمور أخرى، منها ضرورة ألا يفسد الإنسان الكون من حوله، وضرورة أن ينشر في الكون الخير والصلاح بمفهومه الشامل وأن يعمر الأرض بإحياء مواتها واستصلاح أراضيها.

وترتبط رعاية البيئة بعلم السلوك في الإسلام على اعتبار أن الدين في حقيقته هو السلوك والخُلق. بل إن الإسلام نظر إلى الأمور البيئية نظرة ود وحب، فجعل القرآن الكريم

---

[1] موقف الإسلام من تلويث البيئة. دكتور نصر فريد واصل مفتي مصر الأسبق. موقع إسلام أون لاين، بتصرف.

الحيوانات والطيور أمماً مثل أمة الإنسان، ونص القرآن الكريم أن الشجر والدواب والجبال والنجوم تسجد لله تعالى مثل الإنسان المؤمن وأنها تسبح ربها. ويرى علماء الأخلاق المسلمون الكون "البيئة" على أنه آية من آيات الله تستوجب من الإنسان التفكر فيها، وأنه نعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليه والاستمتاع بعنصر الجمال فيه وتنمية هذا الجمال، لأن كل شيء في البيئة من الضروري أن يظهر فيه بديع صنع الخالق سبحانه.

أما علم الفقه وأصوله فقد ارتبطا بالشأن البيئي ارتباطاً كبيراً في حالة السلم والحرب على حد سواء، ووضع الفقهاء عدداً من القواعد التي تنظم هذا الأمر مثل قاعدة "لا ضرر ولا ضرار"، وأن الشرع أتاح لولي الأمر فرض بعض العقوبات التعزيرية التي من الممكن اللجوء إليها في عصرنا الحالي لمن يسيئون إلى البيئة. وأشار الدكتور القرضاوي إلى أن المحافظة على البيئة داخلة في مقاصد الشريعة الخمسة وهي حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، فإفساد البيئة إضاعة لمقاصد الشريعة الإسلامية. وقد تناول الدكتور القرضاوي في بحثه ركائز أساسية لرعاية البيئة منها:

. **التشجير والتخضير:** فهناك آيات وأحاديث كثيرة تحض على الغرس والزرع، يقول النبي ﷺ : "من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل"[1].

. **العمارة والتثمير:** ويأتي في مقدمتها إحياء الأرض الموات وتثمير الثروات وتنمية الموارد، ولذا اعتبر الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" أن عمارة الأرض أحد مقاصد خلق الإنسان، ولذا كان الحديث النبوي: "من أحيا أرضاً ميتة فهي

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده، جـ٢٧، ص١٢٩، رقم (١٦٥٨٦). وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب، جـ٢، ص٨٩، رقم (١٥٤٦).

له"[1]، حتى "أن عمر بن الخطاب ﷺ انتزع أرضاً كانت مقطوعة إلى عبدالله بن أبي بكر لأنه لم يستطع أن يعمرها كلها[2].

. **النظافة والتطهير:** على اعتبار أن الطهارة من شروط بعض العبادات خاصة الصلاة، شاعت بين المسلمين مقولة "النظافة من الإيمان" وأوردت السنة النبوية آداباً كثيرة في النظافة والاغتسال والتطيب وحسن الهندام خاصة في المناسبات العامة كصلاة الجمعة والعيدين، وحثت على إماطة الأذى عن الطريق.

. **المحافظة على الموارد:** يقول تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]. والإفساد يكون بالإتلاف وتفويت المنافع أو التلويث والإسراف، أو بإشاعة الظلم والباطل والشر، ولذا نهى النبي ﷺ رجلاً أن يذبح له شاة حلوباً. وفي السنّة إنذار لمن يقتل طيراً أو حيواناً بغير منفعة أو يتخذ شيئاً فيه روح هدفاً للتصويب عليه.

. **الحفاظ على صحة الإنسان:** هناك حشد كبير من النصوص الإسلامية من قرآن وسنة يدعو إلى الحفاظ على الصحة، بدءاً من الدعاء بطلب العافية ومروراً بالوسائل التي تجلب العافية وتحافظ على سلامة البدن وحتى التعامل الإيجابي مع المرض في حالة وقوعه والمحافظة على البيئة حتى لا تنتقل عدوى المرض إلى الآخرين.

. **الإحسان إلى البيئة:** الإحسان كلمة تتضمن الإتقان والشفقة والإكرام، فقد كان النبي ﷺ يُميل للقطة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها، وكان بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عماله ألا يُحمّلوا الإبل فوق ما لا تطيق وألا يضربوها بالحديد. ومن روائع حديث فقهاء المسلمين في الإحسان إلى الطير ما كتبه العلامة المغربي "أبو علي بن

---

[1] رواه أبو داود في سننه عن سعيد بن زيد ﷺ، كتاب: الخراج، باب: في إحياء الموات، وصححه الألباني، جـ٣، ص١٤٢، رقم (٣٠٧٥)،

[2] أخرجه البيهقي في سننه الكبرى، جـ٦، ص١٤٩، رقم (١١٦٠٥).

[3] سورة الأعراف: الآية ٥٦.

رحال" من ضرورة أن يتفقد الإنسان الطير الذي يحبسه كما يتفقد أولاده، وأن يضع لهذا الطير خشبة ليركب عليها الطائر حتى لا يضره الوقوف على الأرض "يلاحظ هنا مراعاة البعد النفسي والبيئي للطائر في الشريعة".

. **المحافظة على البيئة من الإتلاف:** نهى الإسلام عن الإتلاف البيئي للأحياء والنباتات والعمران سواء كان ذلك بدافع القسوة أو الغضب أو العبث أو الإهمال أو في العمليات الحربية. لذا كان المؤرخ الفرنسي "جوستاف لوبون" يقول: "ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب". ومن يتابع الجرائم الأمريكية في فيتنام والعراق يتأكد من رحمة المسلمين بغيرهم وبالبيئة أثناء العمليات العسكرية والحروب[1].

وعبر بحثه، تناول دكتور القرضاوي عدداً من الوقائع التاريخية في الاهتمام الإسلامي بالبيئة، منها وجود مؤسسات لرعايتها في بعض الفترات، حيث إنها لم تُترك لضمير الفرد فقط، ومن هذه المؤسسات مؤسسة الحسبة التي كانت تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع.

ومن الكتب التي صدرت في هذا الأمر كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" للشيزري، ومما ذكره هذا الكتاب في شأن المراقبة على الخبازين ما ملخصه: ضرورة رفع أسقف الحوانيت وأن يصمم فيها منافذ لتسريب الدخان حتى لا يتضرر الناس، وأن يقوم الخباز بمسح الفرن بخرقة نظيفة قبل وضع العجين فيه، وأن تنظف أوعية العجين جيداً بالماء، وألا يعجن العجان برجليه الدقيق لأن في ذلك مهانة للطعام، وأن يضع العجان على فمه كمامة حتى لا يعطس في العجين، وأن يشد على جبينه عصابة حتى لا يسقط عرقه أثناء العجين، وأن يُخصص له شخص بمنشّة حتى يطرد عنه الذباب إذا كان يعجن بالنهار.

وعرض دكتور القرضاوي عدداً من الوسائل المعاصرة التي يمكن استخدامها لحماية البيئة ورعايتها، منها: تربية النشء على الوعي البيئي وتبصيره بحقيقة الموقف الإسلامي الأصيل من البيئة ورعايتها، وتثقيف الجماهير عبر الوسائل المختلفة، وإيقاظ الضمير الديني في رعاية

[1] رعاية البيئة في شريعة الإسلام. دكتور يوسف القرضاوي. دار الشروق، القاهرة، بتصرف وزيادة.

البيئة. كما أشار إلى ضرورة إتاحة الفرصة أمام الضمير الاجتماعي المتمثل في الرأي العام ليمارس دوره في هذا الشأن، مع سنّ بعض القوانين والتشريعات التي تحافظ على البيئة من عبث العابثين، بالإضافة إلى إيجاد قنوات من التعاون الفعال مع المؤسسات الدولية والإقليمية المهتمة بالبيئة[1].

وتسخير المخلوقات نعمة مَنّ الله بها على الإنسان ليحيا حياة طيبة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ...﴾[2]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[4]. كل تلك الأشياء السماوات والأرض والماء والشمس والقمر والليل والنهار سخرها المولى عز وجل للإنسان: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[5]. ونعمة التسخير هذه وكل نعمة ينبغي أن تُقَابل بشكر لله تعالى وبالمحافظة عليها لكي تزيد تلك النعم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[6].

---

(1) حماية البيئة فريضة شرعية. بحث حول كتاب "رعاية البيئة في شريعة الإسلام" للدكتور يوسف القرضاوي. مصطفى عاشور. موقع إسلام أون لاين، بتصرف وزيادة.

(2) سورة لقمان: الآية ٢٠.

(3) سورة الجاثية: الآية ١٣.

(4) سورة إبراهيم: الآية ٣٢-٣٣.

(5) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

(6) سورة إبراهيم: الآية ٧.

ويقول دكتور القرضاوي "والرسول ﷺ يقول: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[1]. ومعنى كتب أي فرض. والإحسان له معنيان، الإحسان بمعنى الإتقان والإحكام، إحسان الشيء يعني جعل الإنسان متقناً حسناً كاملاً، والإحسان بمعنى العطف.. الإحسان إلى شيء. وهذا مطلوب من الإنسان أن يُحسِن إلى البيئة ويُحسِن بالبيئة، يتعامل معها برفق وحكمة في كل شيء. عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار"[2]. وعلم أصول الفقه يُعنى بمقاصد الشريعة بالضروريات الخمس التي جاءت الشريعة بالمحافظة عليها: المحافظة على الدين، المحافظة على النفس، المحافظة على النسل، المحافظة على المال، المحافظة على العقل. كل هذه الضروريات لها علاقة بالبيئة لأنه إذا أفسدنا البيئة لم نحافظ على أنفسنا أو صحتنا أو نسلنا. والقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[3]. والنسل هو الأجيال والذرية القادمة"[4].

٥. صحة البيئة في الإسلام

لفت الله سبحانه وتعالى النظر إلى ما يمكن أن يحدث، وهو ما نراه اليوم، إذا أغرق الإنسان في استغلال البيئة دون مبالاة بالموازين، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[5]، وقال جل

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس ﷺ، كتاب: الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، جـ٣، ص١٥٤٨، رقم (١٩٥٥).

[2] رواه أحمد في مسنده، جـ١١، ص٦٣٦، رقم (٧٠٦٥). ورواه ابن ماجة في سننه، جـ١، ص١٤٧، رقم (٤٢٥)، وضعفه الألباني.

[3] سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

[4] الشريعة والبيئة. موقع القرضاوي، بتصرف وزيادة.

[5] سورة الشورى: الآية ٢٧.

شأنه: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ ...﴾[2].

إذن لا تكمن المشكلة في استغلال خيرات السماء وبركات الأرض، فتلك لازمة من لوازم التسخير ولوازم العمران، ولكنها تكمن في الإسراف والطغيان والبغي بغير الحق، وكلها مترادفات تعني تجاوز الحد وعدم المبالاة بالموازين، وتؤدي إلى الإخلال بالموازين إخلالاً يفسد البيئة ويجعلها غير صالحة لحياة الناس. ولقد حذر الله سبحانه في مواضع متعددة من كتابه الكريم من الفساد في الأرض، فقال سبحانه: ﴿... كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[3]، وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿... وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[5]. بل لقد خص الله بالذكر ذلك النوع من الفساد الذي يستأصل النبات والحيوان فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾[6]. ولطالما نهى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوامهم عن الفساد في الأرض.

---

[1] سورة الشعراء: الآية ١٥١-١٥٢.

[2] سورة المؤمنون: الآية ٧١.

[3] سورة البقرة: الآية ٦٠.

[4] سورة الأعراف: الآية ٨٥.

[5] سورة القصص: الآية ٧٧.

[6] سورة البقرة: الآية ٢٠٤-٢٠٥.

إن هذا الإسراف في استغلال البيئة دون ضابط ولا ناظم، ظلم ما بعده ظلم، وكفر بنعمة الله، لأن شكر النعمة يكون بالحفاظ عليها. وقد ضرب الله تعالى في القرآن الكريم مثالاً بقرية كفرت بأنعمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1]، وقال عن أمثالها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2]، وعن أقوام أمثالهم: ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3]، ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

ولم يكتفِ الله سبحانه، بالتحذير من هذا الفساد، وإنما بيّن طريق الصواب فقال عز وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ...﴾[5]، أي العدل والاعتدال في الأمور كلها دون إفراط ولا تفريط. ثم كان التطبيق العملي لهذه المبادئ العامة مثالاً يحتذى في كل جيل. فقد حرص النبي ﷺ على تشجيع الزراعة بما يزيد الثروة النباتية ويضيف البيئة الصالحة، فقال: "لا يغرس المسلم غرساً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة"[6].

---

[1] سورة النحل: الآية ١١٢.

[2] سورة هود: الآية ١٠٢.

[3] سورة العنكبوت: الآية ٤٠.

[4] سورة يونس: الآية ٢٣.

[5] سورة الأعراف: الآية ٢٩.

[6] أخرجه مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، جـ٣، ص ١١٨٩، رقم (١٥٥٣).

وعن علي ﷺ قال: "أيها الناس أعينوا على أنفسكم، فإن السبعة أو قال التسعة يكونون في القرية فيحيونها بإذن الله عز وجل"[1]. وجاء رجل إلى علي ﷺ فقال: "أتيت أرضاً قد خربت وعجز عنها أهلها فَكَرَيت[2] أنهاراً وزرعتها" قال: "كل هنيئاً وأنت مصلح غير مفسد، معفر غير مخرب"[3].

وقد كان النبي ﷺ أول من أنشأ محميات بيئية لا يجوز قطع شجرها ولا قتل حيوانها. فقد "حمى رسول الله ﷺ كل ناحية من المدينة بريداً بريداً: لا يخبط شجره ولا يعضد إلا ما يساق به الجمل"، وكان "ينهى أن يقطع من شجر المدينة شيء"[4].

وقال عن المدينة: "لا يختلى خلاها[5] ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ولا يصلح لرجل أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيرة"[6]. وعن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "إني أحرم ما بين لابتي[7] المدينة أن يقطع عضاهها[8] أو يقتل صيدها"[9].

---

[1] رواه يحي بن آدم القرشي. كتاب: الخراج، ص٤٨، رقم (١١٣).

[2] كريت: استأجرت (لسان العرب. ابن منظور، جـ١، ص٣١).

[3] أخرجه يحيى بن آدم في كتاب: الخراج، ص٦٨، رقم (١٩٦).

[4] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: المناسك، باب: في تحريم المدينة، جـ١، ص٦٢١، رقم (٢٠٣٦).

[5] يختلي خلاها: الخلا مقصور النبات الرّطب الرقيق مادام رطباً، واختلاؤه: قطعه (النهاية في غريب الحديث. ابن الأثير، جـ٢، ص٧٥).

[6] أخرجه أبو داود عن علي ﷺ، السنن، كتاب: المناسك، باب: في تحريم المدينة، وصححه الألباني، جـ١، ص٦٢١، رقم (٢٠٣٥).

[7] اللابة: الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود (النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير، جـ٤، ص٢٤٧).

[8] العضاه: كل شجر له شوك (غريب الحديث. الخطابي، جـ٢، ص١٤٠).

[9] رواه مسلم في صحيحه، عن سعد ﷺ، كتاب: الحج، باب: فضل المدينة، جـ٢، ص٩٩٢، رقم (١٣٦٣). وأخرجه أحمد في مسنده عن سعد ﷺ، جـ٣، ص١٤١، رقم (١٥٧٣).

وكان النبي ﷺ يحض على تنظيف البيئة وعدم تلويثها، فعن ابن عباس يقول: "وإماطة الأذى عن الطريق صدقة"[1]. و"الصدقة" اسم يطلقه الإسلام للتعبير عما نسميه اليوم "السلوك الحضاري" أو "التصرف الحضاري"، لأنها بدلالة اسمها مصداق انتماء المرء إلى المجتمع الإسلامي المتحضر. يدل على ذلك قول النبي ﷺ عن أبي مالك الأشعري: قال رسول الله ﷺ : "... والصدقة برهان"[2].

وكان من هديه ﷺ، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "لايبولن أحدكم في الماء الراكد"[3]، وعن عبدالله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ : "لا يبولنّ أحدكم في مستحمّه ثم يغتسل فيه"[4]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "اتقوا اللعانين قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم"[5].

وقد لخص الإمام العظيم العز بن عبد السلام حقوق العباد على المكلف "بأن يجلب إليهم كل خير ويدفع عن كل ضير" ... "فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد والشر "أو الضير" يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح".

وفي المجتمع الإسلامي، ضمانة من أهم ضمانات تحري الإصلاح ومحاربة الفساد، ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي فريضة تتعدى مجرد التوعية وإتاحة المعلومات، إلى متابعة تطبيق هذه المعلومات في حيز الواقع. فكل من يعرف أن التدخين مضر، ويعلم من أضراره ما يعلم، يجد من واجبه أن ينقل هذه المعلومات إلى الآخرين، ويعرّف كل أخ له في المجتمع بمضار التدخين. ولكن الأمر لا يقف به عند هذا الحد، وإنما يرى من واجبه إذا شاهد

---

[1] أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني، ص١٥٢، رقم (٤٢٢). وأخرجه البخاري في الصحيح بلفظ "يميط الأذى عن الطريق صدقة" عن أبي هريرة، باب: إماطة الأذى، جـ٢، ص٨٧٠، رقم (٢٨٢٧).

[2] رواه مسلم في صحيحه، كتاب : الطهارة، باب: فضل الوضوء، جـ١، ص٢٠٣، رقم (٢٢٣).

[3] رواه ابن ماجة في سننه، باب: النهي عن البول في الماء الراكد، وصححه الألباني، جـ١، ص١٢٣، رقم (٣٤٤).

[4] رواه أبو داود في سننه، كتاب: الطهارة، باب: في البول في المستحم، وصححه الألباني، جـ١، ص٥٤، رقم (٢٧).

[5] رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: النهي عن التخلي في الطرق والظلال، جـ١، ص٢٢٦، رقم (٢٦٩).

مدخناً أن يأمره- بالموعظة الحسنة- بالكف عن التدخين لأنه يضره، ويبين له إنه إذا جاز له أن يؤذي نفسه- وهو غير جائز- فإن إيذاءه الآخرين أشد إثماً، والنبي ﷺ ينهي عن الضرر الفردي والمشترك فيقول: "لا ضرر ولا ضرار"[1]، وينهى عن إيذاء الجار- أي جار- في المترل أو وسائل النقل المشترك أو الأماكن العامة أو المكاتب أو غيرها، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره"[2].

ومثل ذلك موقفاً، من يساهم في إفساد البيئة بأي شكل من الأشكال، كمن يسكب نفايات مصنعه في المياه المشتركة بين الناس أو غير ذلك من أنحاء البيئة العامة. وقد جعل الإسلام حماية البيئة والنهي عن إفسادها، واجباً من واجبات المجتمع الفاضل، فقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾[3].

٦. الوضوء والصحة العامة كنموذج

في دراسة بعنوان "الوضوء إبداع طبي"، تم تناول الوضوء والطهارة بكل أركانها التي فرضها الله سبحانه وتعالى، استعداداً للصلاة خمس مرات في اليوم بثوب نظيف وفي مكان نظيف. وهي أمور واجبة على أمة الإسلام التي تقف في خضوع وخشوع أمام الخالق البارئ العظيم، إذ لابد أن يكون المرء على أعلى درجة من النظافة والتطهر احتراماً وإجلالاً لخالقه وعملاً بقوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[4]. ولصحة الوضوء فرائض محددة لابد من القيام بها طبقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا

---

[1] رواه أحمد عن ابن عباس، المسند، جـ٥ ، ص٥٥، رقم (٢٨٦٥). وقال الألباني في صحيح الجامع: صحيح، ص١٣٤٨، رقم (١٣٤٧٤).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، جـ٥ ص٢٢٤٠، رقم (٥٦٧٢). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار والضيف، جـ١، ص٦٨، رقم (٤٧).

[3] سورة هود: الآية ١١٦.

[4] سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ...﴾[1].

وتثبت هذه الدراسة أن الوضوء إبداع طبي ووقاية صحية من الأمراض، ويكسب الإنسان النشاط والانتعاش والحيوية وينشط الدورة الدموية ويطهّر الأجزاء المكشوفة من الجسم من الجراثيم الضارة وتلوث البيئة. كما أن الإبداع الطبي في الوضوء يخلّص الإنسان من الرائحة الكريهة والخبيثة من الجسد والفم، تلك المشكلة الصحية والاجتماعية. كما تثبت الدراسة أن كل ركن من أركان الوضوء علاج لكثير من الأمراض المزعجة والمشكلات الصحية المزمنة.

أثناء الوضوء يجب غسل الوجه واليدين إلى المرفقين ومسح الرأس والرجلين إلى الكعبين، وإذا نقص أي فرض من هذه الفروض يصبح الوضوء ناقصاً وغير صحيح. ولقد زادنا رسول الله ﷺ شرحاً وتفصيلاً عملياً للوضوء، فجاءت السنن النبوية الشريفة بالمضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين والرقبة وغسل كل عضو ثلاث مرات، وبذلك تصبح عملية الوضوء التي تسبق الصلوات إبداعاً وقائياً رائعاً في مقدمته أن تصبح النظافة المستمرة عادة يومية منتظمة تساعد الإنسان على الوقاية من الإصابة بالأمراض المختلفة.

. **الأجزاء المكشوفة وسرطان الجلد:** يلاحظ أن الوضوء اهتم بأجزاء الجسم الظاهرة والأكثر تعرضاً من غيرها لتأثير العوامل الجوية وتغير الطقس وتقلباته مثل الوجه والرأس واليدين والقدمين وجميع الفتحات الظاهرة من الجسم مثل الفم والأنف والعينين. ويعتبر غسل هذه الأجزاء المعرضة للغبار والجراثيم المنتشرة في الجو من أهم أسس الطب الوقائي، حيث تصبح هذه الأجزاء المكشوفة نظيفة وتخلص الجسم من الروائح الكريهة سواء من العرق أو بقايا الإفرازات الأخرى الضارة فلا تقترب الجراثيم والحشرات من الإنسان. ومازال الطب الوقائي الحديث يبحث في تأثيرات عملية الغسل المتكرر لأجزاء الجسم المكشوفة التي أكد أنها وقاية فعالة للطبقة الخارجية للجلد ومنع الميكروبات الضارة من

[1] سورة المائدة: الآية ٦.

الوصول إلى داخل الجسم، ولعل أهم هذه التأثيرات الوقائية المتعلقة بالوضوء هو أنه يقلل من احتمال حدوث سرطان الجلد.

. **الحماية من التلوث الكيميائي:** تبين الدراسات المتعلقة بأسباب الإصابة بسرطان الجلد أن الغالبية العظمى من حالات الإصابة تكون نتيجة تعرض الجلد للمواد الكيميائية وخاصة الناتجة عن صناعة البتروكيماويات، وأن أفضل طرق الوقاية هي إزالة تراكمات هذه الكيماويات من سطح الجلد أولاً بأول عن طريق الغسل المتكرر- الوضوء- وهو ما يقلل من تأثير هذه المواد على خلايا الجلد الذي يؤدي على المدى الطويل إلى حدوث تغيرات سرطانية. كما أكدت المشاهدات الطبية لعمال المناجم وصناعة المعادن أنهم معرضون للإصابة بأورام سرطانية في الرئة والأنسجة الليمفاوية والكلى والمثانة، وكل هذه الحالات تنشأ فيها الأورام السرطانية نتيجة لتسرب المواد الكيميائية إلى الجسم عن طريق الجلد. وهذه الملاحظات الطبية تبين مدى تأثير الوضوء في إقلال فرص الإصابة بسرطان الجلد.

. **الحماية من الأشعة فوق البنفسجية:** فسطح الجلد من الأجزاء المكشوفة من الجسم والمعرضة دائماً لأشعة الشمس وخاصة الأشعة فوق البنفسجية التي ربما تعرض الإنسان للإصابة بسرطان الجلد. ومن هنا يلاحظ أن الوضوء بالماء البارد خمس مرات يومياً يعمل على ترطيب سطح الجلد، مما يتيح لخلايا الطبقة الداخلية للجلد الوقاية من التأثيرات الضارة لأشعة الشمس. ومن الجدير بالذكر في هذا المجال، أن الإحصاءات العلمية تبين أن الإصابة بسرطان الجلد هي أكثر أنواع السرطان شيوعاً بين الرجال في الدول الغربية وخاصة استراليا والولايات المتحدة، إلا إنه يلاحظ أن هذا النوع من الأمراض الجلدية ليس منتشراً في الدول الإسلامية بالرغم من قوة الأشعة الشمسية، ويرجح بأن ذلك بسبب المواظبة على الوضوء.

. **غسل اليدين إلى المرفقين والأمراض المعدية:** من أكثر أعضاء الجسم تعرضاً لنقل الجراثيم اليدان والمرفقان، مثل مصافحة الآخرين أو عند نقل طعام ملوث أو مواد كيميائية أو صناعية أو نقل القمامة والنفايات الضارة أو لمس أشياء ملوثة، فيلاحظ أن معظم الجراثيم تختبئ تحت الأظافر وبين الأصابع، وكذلك بويضات الديدان الخيطية والدبوسية

"أكسيورس" التي يصل حجم بعضها إلى ملليمتر واحد ويمكن أن تدخل إلى الجهاز الهضمي بسهولة بالغة عند عدم غسل الأيدي حيث تتكاثر وتسبب المتاعب والأمراض للإنسان. وقد اتضح علمياً أن طفيليات الديدان أيضاً تدخل عن طريق تسربها من جلد الإنسان. وأهم الأمراض التي تنتقل عن طريق اليدين هي التيفويد والدوسنتاريا والنزلات المعوية والتهابات الكبد الفيروسية.

. **المضمضة وصحة الفم والأسنان:** من التعاليم الصحية الإسلامية أنه لا تجوز الصلاة وفي الفم بقايا طعام، ولكن يجب أن يغسل المسلم فمه ويتمضمض ثلاث مرات حتى يُخرج بقايا الطعام التي إذا تركت، وخاصة فضلات الطعام النشوية والسكرية، تتعفن وتسبب الروائح الكريهة وتكاثر الجراثيم الضارة، فتصاب اللثة بالالتهابات والجيوب الصديدية وتتسوس الأسنان وغير ذلك من أمراض الفم والأسنان. بذلك يعتبر غسل الفم ثلاث مرات في كل وضوء مع السواك من أفضل الطرق لإزالة بقايا الطعام من بين الأسنان، ومن أهم الأسس الوقائية لصحة الفم والأسنان، علماً بأن المضمضة في حد ذاتها بالماء العادي والتنظيف يفوق في تأثيره أقوى المعاجين الطبية.

. **الاستنشاق وأمراض البدن:** من روائع الوضوء الاستنشاق بالماء ثلاث مرات عند كل وضوء. وهذه السنة النبوية لها مغزاها الطبي الإبداعي في الوقاية، لأنه أثناء عملية التنفس الصحي من الأنف المحتوي على الحواجز الغضروفية، المكسوة بغشاء مخاطي لزج وكمية من الشعر الناعم عند مدخل الأنف، يُحتجز الكثير من الأتربة والجراثيم. وعن طريق عملية الاستنشاق أثناء الوضوء وتكرارها ثلاث مرات تجرف معها تلك الميكروبات والجراثيم إلى الخارج. ومن المعروف أن معظم الأمراض مثل الأنفلونزا وشلل الأطفال والدفتيريا والزكام والتهابات الجيوب الأنفية وغيرها من الأمراض يصل فيها الميكروب عن طريق الأنف والحلق أولاً ثم ينتقل إلى داخل الجسم ويصيبه بالمرض. وهذا هو الإبداع الطبي في حكمة الاستنشاق أثناء الوضوء لتخليص الأنف من تلك الجراثيم والفيروسات وأمراضها.

روى مسلم عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ : "عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظافر، وغسل البراجم[1]، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء"[2].

. **غسل الوجه وشوائب البشرة وأمراض العيون:** إن غسل الوجه ثلاث مرات عند الوضوء يزيل ما علق به من غبار وجراثيم، وبذلك يُضمن نظافة العينين والمحافظة على سلامتهما وتجنب الإصابة بالرمد الحبيبي أو الصديدي أو التهابات العينين، هذا بجانب صفاء البشرة والمحافظة على نضارتها وتنشيط خلايا الوجه الذي هو مرآة للإنسان فيبدو المرء دائماً بوجه صبوح وضّاء.

. **مسح الأذن واختلال السمع والتوازن:** يلاحظ في أركان الوضوء أن مسح الأذنين إبداع طبي من أجل إزالة المواد الشمعية الزائدة وما يتراكم عليها من غبار أو قاذورات داخلية ربما تؤدي إلى انسداد الأذن او إصابتها بالالتهابات التي قد تنتقل إلى الأذن الداخلية وتسبب ضعف السمع أو اضطراب توازن الجسم نظراً لوجود مركز توازن الجسم في الأذن الداخلية.

. **مسح الرقبة والرأس والصداع وضغط الدم:** بعد أن شرح الرسول ﷺ مسح الرقبة في الوضوء وحددها بمسح ربع الرأس الأمامي "لإزالة الأتربة المتراكمة الممزوجة بالعرق والإفرازات الأخرى"، كان من سننه ﷺ مسح الرقبة وخاصة المنطقة خلف الرقبة "لإزالة الغبار والإفرازات العرقية". ونتيجة لغسل هذه المناطق يُضمن بنظافتها عدم الإصابة بالالتهابات والأمراض الجلدية وتجعل رائحة المرء مقبولة دائماً. هذا بجانب ما للماء البارد من تأثيرات حسنة على النشاط والحيوية وإزالة حالات الصداع والتعب الذهني. فغسل

---

[1] البراجم: هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ. والواحدة برجمة (النهاية في غريب الحديث. ابن الأثير، جـ١، ص١١٣).

[2] قال زكرياء: قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. زاد قتيبة قال وكيع: انتقاص الماء يعني الاستنجاء. رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الطهارة، باب: خصال الفطرة، جـ١، ص٢٢٣، رقم (٢٦١). زكرياء ومصعب وقتيبة من رواة هذا الحديث وكلهم في سلسلة سند الرواية المذكورة.

مثل هذه المساحات من أجزاء الجسم المكشوفة أثناء عملية الوضوء خمس مرات يومياً لا شك أنها تؤدي إلى خفض درجة حرارة الجسم وتساعد على خفض ضغط الدم المرتفع وفي الوقت نفسه تنظم عمل الدورة الدموية وتزيل التوترات العضلية والعصبية وتنظم عمل القلب وحركة النبض وسرعة دورات الدم الوريدي.

ومن عظمة الإسلام أنه لم يكتف بنظافة شعر الرأس فقط وإنما يأمر بتهذيب الشعر وحسن منظره، فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "من كان له شعر فليكرمه"[1]. وكذلك عندما رأى رجلاً أشعث قال: "أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره". وهذا يدل على مدى عناية الإسلام بالشعر وغسله وتصفيفه من أجل الصحة والاهتمام بالمظهر العام اللائق بالإنسان.

. **الوضوء نظافة وجمال:** من روائع الإسلام أنه لا يقبل الوضوء ولا الصلاة إلا إذا كان ثوب الإنسان نظيفاً غير ملوث بأي مادة من النجاسات سواء من رائحتها أو لونها، لأن المولى عز وجل يقول: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2]. كما ارتبطت النظافة ارتباطاً مباشراً بمفهوم الطهارة ومنع التلوث وكان لها أولوية في تعاليم الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3].

لذلك كان الرسول ﷺ يستاء إذا رأى مسلماً لا ينظف ثوبه ويقول لأصحابه: "أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه"[4]. وقوله ﷺ : "الطهور شطر الإيمان... "[5]. وعندما قال

---

[1] رواه أبو داود في سننه، كتاب: الترجل، باب: في إصلاح الشعر، جـ٢، ص ٤٧٥، رقم (٤١٦٣). وقال الألباني: حسن صحيح.

[2] سورة المدثر: الآية ٤.

[3] سورة البقرة: الآية ٢٢٢.

[4] أخرجه ابو داود عن جابر بن عبدالله ﷺ في سننه، كتاب: اللباس، باب: في غسل الثوب وفي الخلقان، وصححه الألباني، جـ٢ ص٤٤٩، رقم (٤٠٦٢).

[5] أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء، جـ١ ص١٤٠ رقم (٥٥٦).

رسول الله ﷺ : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" قال له رجل: يا رسول الله إن الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً... فهل هذا كبر؟ فرد عليه الرسول ﷺ بقوله: "إن الله جميل يحب الجمال"، وأخذ يذكرهم بقول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾[1][2].

والمقصود بالزينة ليس الملابس الأنيقة والثياب الغالية الثمن، إنما النظيفة وذات الرائحة العطرة أولاً، لأن الإسلام يدعو دائماً إلى النظافة والطهارة والعناية بجمال المظهر. فقد كان رسول الله ﷺ جميلاً في طلعته وهيئته وزينته يحب كل قول وفعل ومنظر جميل تقرباً إلى الله تعالى رب الجمال.

وروى مكحول عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: "كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم وفي الدار كوة فيها ماء فجعل ينظر إلى الماء بدلاً من المرآة ويسوي لحيته وشعره فقلت يا رسول الله وأنت تفعل هذا؟ قال: نعم إذا خرج الرجل إلى إخوته فليهيء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال"[3]. صدق رسول الله ﷺ فقد أكمل لكل البشر أسس الصحة العامة والصحة الشخصية والوقائية والتربية الجمالية في الإسلام[4].

٧. غسل الأيدى والأمراض التقليدية والمعاصرة

يؤكد الطب الحديث أن غسل الأيدي هو أفضل وأرخص من أي دواء للوقاية من العدوى بالأمراض الخطرة المعدية ومنها فيروس "H١ N١" المسبب لما يعرف باسم "انفلونزا

---

[1] سورة الأعراف: الآية ٣١.

[2] رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، جـ١، ص٩٣، رقم (١٤٧).

[3] أخرجه ابن عَدِي في الكامل، جـ١، ص٣٤٧.

[4] الوضوء إبداع طبي. دراسة بموقع دنيا الوطن "عن الرأي العام الكويتية"، بتصرف وزيادة.

الخنازير" والذي أصبح يثير الذعر في الوقت الراهن، كذلك الالتهاب الكبدي الوبائي والتهاب السحايا والإسهال المعدي والطفيليات المعوية. وأنه ظل من التدخلات الطبية الناجعة على مدى التاريخ. ومعروف أن تضاريس اليد تسمح للميكروبات بالاستيطان بها، وقد تحوي الملايين من الميكروبات، بالإضافة إلى اختباء أعداد هائلة منها تحت الخواتم والأساور وساعات اليد.

ويتحقق التطهير الكافي بغسل اليدين بماء نظيف دافئ وجار واستخدام الصابون السائل لمدة ٢٠ ثانية على الأقل أو غسلهما بالكحول بعد استخدام الماء وتجفيفهما. وإذا تعذر ذلك فيمكن المسح الجيد بمناديل الكحول مع فرك كامل لسطحي اليدين والأصابع دائرياً وما بينهما والأظافر وما تحتهما ثم شطف اليدين جيداً بالماء الجاري بعد التصبين لمدة ٢٠ ثانية. ويوصى دوماً بغسل اليدين في مواطن كثيرة، ومنها قبل وبعد إعداد الطعام وتناوله، وقبل وبعد استخدام الحمّام، وبعد العطس وتغيير حفاضات الأطفال ولمس النقود وسلة القمامة، وقبل وبعد التلامس مع المرضى، وقبل وبعد لمس الجلد أو العين أو الأنف أو الرأس، وبعد ارتداء الحذاء، وقبل وبعد ارتداء القفازات، وقبل ارتداء العدسات اللاصقة[1].

٨. تغير المناخ والتصور الإسلامي

برز الاهتمام العالمي بقضايا البيئة باعتبارها تمس مصالح البشر دون استثناء، خاصة ما يتعلق بمشكلة تغير المناخ والاحترار العالمي، حيث تعد الأزمات والكوارث البيئية التي يتعرض لها العالم حالياً من أعقد الأزمات التي واجهت البشرية منذ نشأتها والتي تتأثر بها كافة المجتمعات والطوائف البشرية.

وقد كتب الكثيرون نظرياً عن الإسلام وتشريعاته الرامية لحماية البيئة وفق التصور الإسلامي، ولكن ظلت المبادرات العملية غائبة عن الساحة، وما ظهر منها كان تجارب

---

[1] خبير مناعة مصري يؤكد أن غسل الأيدى أرخص دواء للوقاية من انفلونزا الخنازير. موقع مصراوي "عن وكالة أنباء الشرق الأوسط"، بتصرف.

فردية مشتتة قامت بها بعض المنظمات الإسلامية، مثل المؤسسة الإسلامية لعلوم البيئة IFEES، المؤسسة الإسلامية للعلوم والبيئة بنيودلهي، المركز الإفريقي للتنمية المستدامة بنيجيريا.

كما صدر الدليل الأخضر للمسلمين لمواجهة تغير المناخ عام ٢٠٠٨، برعاية جمعية "صناع الحياة" في المملكة المتحدة والمؤسسة الإسلامية لعلوم البيئة، إلا أن هذه المبادرات افتقدت طابع العالمية، وهنا كانت الحاجة لمبادرة عملية قابلة للتطبيق، وهو ما قدمه مركز حوار أصدقاء الأرض EMDC وهو مؤسسة إسلامية غير ربحية مقرها المملكة المتحدة تهدف للمحافظة على البيئة من منظور إسلامي وتعنى بالتحديات الرئيسة التي تواجه العالم، كمشكلات الفقر وحقوق الإنسان من خلال الحوار مع شركاء لإيجاد حلول تقوم على أسس دينية لتلك التحديات.

وفي إطار ورشة العمل حول "الإسلام والبيئة" التي عقدت في أكتوبر عام ٢٠٠٨ بالكويت، تم الاتفاق على مشاركة أعضاء من دول إسلامية مختلفة لإصدار خطة السنوات السبع للتعامل مع تغير المناخ. وبالفعل أسهم ٢٢ من المشاركين بالورشة من ١٤ دولة إسلامية في إعداد هذه الخطة برعاية مركز حوار أصدقاء الأرض، لتقديمها إلى مؤتمر استانبول المنعقد في مطلع يوليو ٢٠٠٩. وقد وضعت خطة المشروع بعد عديد من الاجتماعات وورش العمل، لعرضها على ما يقرب من ثمانين عالماً إسلامياً خلال المؤتمر لمناقشتها وإقرارها.

وتقدم تلك الخطة الرؤية الإسلامية لمشكلة تغير المناخ من خلال إجراءات عملية بأهداف محددة تتمثل فيما يلي:

. تقديم رؤية إسلامية في مجال البيئة بصفة عامة وتغير المناخ على وجه الخصوص.

. تحديد ودراسة التفاعلات بين الحضارة الإسلامية والبيئة وعرض نماذج لتلك التجارب.

. رصد جهود العالم الإسلامي بصفة عامة والجهود المميزة لبلدان بعينها في مجال مواجهة تلك التحديات.

. عرض المشاريع والتجارب التي ظهرت في العالم الإسلامي للتعامل مع تغير المناخ والاحترار العالمي.

. دراسة الموارد والمصادر المتوفرة بالعالم الإسلامي، وتحديد تلك التي يمكن استخدامها في تنفيذ الخطة التشغيلية للتعامل مع تلك المشكلة.

. وضع مشروع نهائي لخطة عمل من سبع سنوات يمكن تطبيقها في العالم الإسلامي لمواجهة ظاهرة الاحترار العالمي وتغير المناخ. وتتضمن الخطة الرؤية والمهمة والأدوات الممكنة والموارد، ونقاط القوة والضعف والفرص والتحديات والأهداف وجدولاً زمنياً للتنفيذ خلال سبع سنوات.

وتتمثل نقاط القوة في الخطة الموضوعة فيما يلي:

. النصوص الإسلامية الثرية التي تدعم فكرة حماية البيئة.

. وجود الكثير من الأنشطة التاريخية والحالية في هذا المجال.

. إمكانية مساهمة العلماء المسلمين.

. وجود بعض التجارب الناجحة في العالم الإسلامي.

. جهود العديد من العلماء المسلمين الذين أجروا أبحاثاً في هذا المجال.

. الوصول بالتدريب إلى المؤسسات التربوية خاصة المدارس.

وتتمثل استراتيجية التعامل مع الخطة فيما يلي:

. التركيز على جهود نخبة من القادة والمؤسسات الإسلامية.

. الشراكة مع المؤسسات ذات الصلة من اتباع الديانات الأخرى.

. تعزيز الجهود المعنية الجارية على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي والتكامل معها.

. التركيز على الهيئات الحكومية ذات الصلة والمؤسسات التربوية الرسمية وغير الرسمية في المجتمعات الإسلامية.

. الاستفادة من الأصول المتوافرة، واستخدام الشبكات ووسائل الاتصال المتاحة ذات الصلة.

. وضع خطة دعوية للربط والتواصل.

. إنشاء آلية مستدامة للرصد والتحقيق والتقييم.

. العمل مع المؤسسات التشريعية التي تملك حق إصدار وتعديل القوانين[1].

٩. الرسول الأمين ﷺ والبيئة: تأملاتٌ أجنبية

كثيراً ما تتسم الرؤى الأجنبية لحياة رسولنا ﷺ بعمق وتفهم واقتناع مثير للتأمل. وتمثل "فرانسيسكا دو شاتِلْ"، الكاتبة الهولندية الطليعية المتخصصة في أنثروبولوجيا الثقافة الإسلامية، إحدى النماذج الواعية لطبيعة عقيدتنا السمحاء ولقدوتنا الرسول الأمين ﷺ. تقول "الواقع أن القول بأن محمداً ﷺ رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع في آذان الكثيرين في البداية موقعاً غريباً، إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة" وما يرتبط به من مفاهيم مثل "الوعي البيئي" و"ترشيد الاستهلاك" وما ماثلها، هي ألفاظ من اختراع العصر الحديث، أي مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا".

"ومع ذلك فإن تأمل الأحاديث النبوية عن قرب، لترينا أنه كان واحداً من أشد المنادين بحماية البيئة. بل يمكن القول إنه كان في نصرته للبيئة سابقاً لعصره، أي رائداً في مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية، وواحداً من الذين يسعون لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة. وبالاستناد إلى ما أوردته الأحاديث من أعماله وأقواله يمكن القول بأن محمداً ﷺ كان يتمتع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار وأنه كان على صلة حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والنار والهواء".

---

[1] الإسلام وتغير المناخ.. خطة السنوات السبع، قبيل انعقاد مؤتمر استانبول للبيئة في يوليو ٢٠٠٩. أمل خيري. موقع إسلام أون لاين، بتصرف وزيادة.

"لقد كان محمد ﷺ من الدعاة الأقوياء للاستخدام الرشيد للأرض والماء واستثمارهما، وكذلك المعاملة الكريمة للحيوانات والنباتات والطيور، والحقوق المتساوية لمن يتعاملون معها من البشر. وفى هذا السياق فإن حداثة رؤيته للبيئة وحداثة المفاهيم التي جاء بها في هذا المجال لمما يَشْدَه العقل شَدْهاً، حتى لتبدو بعض أحاديثه وكأنها مناقشات عصرية حول قضايا البيئة".

٩. ١. المبادئ الثلاثة

"إن فلسفة محمد ﷺ البيئية هي أولاً وقبل كل شيء شاملة مترابطة، إذ تقوم على أن هناك صلة أساسية وارتباطاً متبادلاً بين عناصر الطبيعة، كما أن نقطة انطلاقها هي الإيمان بأنه إذا أساء الإنسان استخدام عنصر من عناصر الطبيعة أو استترفه استترافاً فإن العالم الطبيعي برُمّته سوف يضار أضراراً مباشرة. على أن هذا الاعتقاد لا يُنَصّ عليه في حديث واحد نصاً مباشراً، بل يمثل بالأحرى المبدأ الذي تنهض عليه جميع أقوال محمد ﷺ وأفعاله. إنه فلسفة حياته التي على ضوئها نستطيع أن نبصر ملامح شخصيته".

"إن أهم المبادئ في الفلسفة المحمدية المتعلقة بالطبيعة تقوم على تعاليم القرآن، ومفاهيم الوحدانية وخلافة البشر، والثقة في الإنسان. ويمثل التوحيد حجر الزاوية في دعوة الإسلام ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. ويقر محمد ﷺ بأن علم الله وقدرته يشملان كل شيء، ومن ثم كانت الإساءة إلى أي مخلوق من مخلوقاته سواء كان كائناً حياً أو مصدراً من مصادر الطبيعة، ذنباً من الذنوب يُجازَى الإنسان عليه. وفى اعتقاده أن جميع مخلوقات الله متساوية أمامه سبحانه، وأن الحيوانات، وكذلك الأرض والغابات وينابيع المياه، ينبغي أن يكون لها حقوق تُحترم".

"أما مفهوما الخلافة البشرية في الأرض والثقة في الإنسان فينبعان من مبدأ الوحدانية. ويوضح القرآن أن الإنسان يتمتع بوضع متميز بين مخلوقات الله على الأرض، إذ اصطفاه

---

[1] سورة المائدة: الآية ١٢٠.

ليكون خليفة فيهله وينهض بمسئولية العناية بغيره من مخلوقات هذا الكوكب. وهذا واجب كل فرد ووجه تَميُّزه، ومحل الثقة به. ورغم هذا نرى القرآن مراراً وتكراراً ينهى الإنسان عن الكِبْر منبها إياه إلى أنه ليس أفضل من سائر المخلوقات: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1].

وقد آمن محمد ﷺ بأن الكون بما فيه من مخلوقات، حيوانات كانت أم نباتات أم مياهاً أم أراض، لم تُخلق لتكون ملكاً للبشر. صحيح أن البشر لهم الحق في استخدام موارد الطبيعة، إلا أنهم لا يمكنهم أن يتملكوها تملّكاً. ومن هنا، فإنه في الوقت الذي يسمح الإسلام للإنسان بحيازة الأرض نراه يضع حدوداً لذلك، فعلى سبيل المثال يمكنه أن يحوز الأرض فقط طالما كان يستعملها، لكنه ما إن يكفّ عن هذا الاستعمال حتى يصبح واجباً عليه التخلي عن هذه الحيازة".

"وكان محمد ﷺ يدعو دائماً إلى التواضع. وبالمثل نراه يحض اتباعه على التشارك في موارد الطبيعة، إذ يخاطبهم قائلاً: "المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار"[2]. كما يعد حرمان الظمآن إثماً يعاقَب عليه: "من منع فضل مائه أو فضل كلئه منعه الله فضله يوم القيامة"[3]. والواقع أن موقف محمد ﷺ تجاه الاستعمال الرشيد للأرض والمحافظة على الماء والطريقة التي كان يعامل بها الحيوانات لدليل آخر على التواضع الذي يصبغ فلسفته حول البيئة".

---

[1] سورة الأنعام: الآية ٣٨.

[2] أخرجه أبو داود في سننه: كتاب: البيوع، باب: في منع الماء، وصححه الألباني، جـ٢، ص٣٠٠.

[3] رواه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص، جـ١١، ص٢٥٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، جـ٣، ص٤٠٩، رقم (١٤٢٢).

٩. ٢. الاستخدام الرشيد للأرض

"... وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً..."[١]. في هذا الحديث الشريف يؤكد محمد ﷺ الطبيعة المقدسة للأرض أو التربة، لا بوصفها ذاتاً طاهرة فحسب، بل بوصفها مادة مطهِّرة أيضاً. ويظهر أيضاً هذا الاحترام للأرض في شعيرة التيمم التي تجيز استعمال التراب في الطهارة الواجبة عند الصلاة في حالة افتقاد الماء".

"وينظر محمد ﷺ إلى الأرض على أنها مسخّرة للإنسان، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يفرط في استخدامها أو يسيء استعمالها، كما أن لها ذات الحقوق التي للأشجار والحيوانات البرية التي تعيش فوقها. ومن أجل المحافظة على الأرض والغابات والحيوانات البرية جعل محمد ﷺ عدداً من "المحميات"، أي الأماكن التي يحرم فيها استعمال الموارد الطبيعية، وهو ما لا يزال معروفاً إلى اليوم، إذ هناك مناطق ممنوعة حول بعض الآبار وعيون الماء غايتها حماية المياه الجوفية من الاستهلاك المفرط والنفاد، ومنها المناطق الخاصة بالحيوانات البرية والغابات حيث يُمنع الرعي وقطع الأشجار أو يحرّم التعرض لأنواع معينة من الحيوانات".

"ولم يشجع محمد ﷺ فقط الاستعمال الرشيد للأرض، بل لفت أنظار اتباعه أيضاً إلى المكاسب التي يجنيها الإنسان من إحياء الأرض البور، إذ جعل زرع شجرة أو غرس بذرة أو سَقْي أرض عطشى من أعمال البر والإحسان: "من أحيا أرضاً ميتة فله فيها أجر"[٢]. وعلى هذا فأيما شخص ساق الماء إلى قطعة أرض قاحلة فهي له".

٩. ٣. المحافظة على الماء

في البيئة الصحراوية الخشنة التي كان يعيش فيها محمد ﷺ، يعد الماء مرادفاً للحياة، فهو نعمة من الله، بل هو أصل الحياة كما يشهد بذلك القرآن: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ

---

[١] جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله ﷺ، باب: التيمم، جـ١، ص١٢٨، رقم (٣٢٨). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، جـ١، ص٣٦٩، رقم (٥٢١).

[٢] رواه النسائي في السنن الكبرى عن جابر بن عبدالله ﷺ، جـ٣ ، ص٤٠٤، رقم (٧٥٧٥).

شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. ويذكّر القرآن المسلم على الدوام بأنه خليفة الله في الأرض، لكن لا ينبغي له مع ذلك أن يأخذ الأشياء المخلوقة على أنها أمر مسلّم به: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[2].

"كذلك كان الاقتصاد في الماء والمحافظة على طهارته قضيتين مهمتين عند محمد ﷺ. ولقد رأينا كيف أدى اهتمامه بالاستخدام الرشيد للماء إلى إقامة المحميات بالقرب من ينابيعه. وحتى عندما يكون الماء متوفراً نراه ينصح بالاقتصاد في استعماله. ومن ذلك نهيه عن غسل أعضاء الوضوء أكثر من ثلاث مرات حتى لو كان المتوضئ على نهر جار. ويضيف البخاري قائلاً: "وكره أهل العلم الإسراف فيه وأن يجاوزوا فعل النبي ﷺ". وبالمثل نهى محمد ﷺ عن تلويث المياه، وذلك بمنع التبول في الماء الراكد".

٩. ٤. معاملة المخلوقات من الحيوان

جاء في الحديث النبوي: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة"[3]، "من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأل الله عز وجل عنها يوم القيامة"[4]، و"من قتل عصفوراً عبثاً عج إلى الله يوم القيامة يقول يا ربّ! إنّ

---

[1] سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

[2] سورة الواقعة: الآية ٦٨-٧٠.

[3] رواه البخاري في كتاب: الحرث والمزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه، جـ٢، ص٨٧١، رقم: (٢١٩٥)، كما أخرجه مسلم في كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، جـ٣، ص١١٨٩، رقم: (١٥٥٣).

[4] أخرجه أحمد في مسنده عن عبدالله بن عمرو بن العاص، جـ١١، ص١١٠، رقم (٦٥٥١)، وجـ١١، ص٥٤٨، رقم (٦٩٦٠) عن عبد الله بن عمرو. وأخرجه النسائي في السنن الصغرى، عن عبدالله بن عمرو، جـ٧، ص٢٣٩، رقم (٤٤٤٥).

فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعةً"[1]، وهو ما يعكس إجلال محمد ﷺ واحترامه وحبه للحيوانات. ذلك أنه كان يعتقد أنها بوصفها خلقاً من خلق الله، ينبغي أن تحظى بمعاملة كريمة، ففي الأحاديث النبوية عدد ضخم من الروايات والتوجيهات الخلقية والقصص التي ترسم لنا صورة عن علاقته بالحيوانات. وبعض هذه القصص ترينا أنه كان يهتم اهتماماً خاصاً بالإبل والخيول، فهما في رأيه نعم الرفيق في الأسفار والحروب، كما كان يجد كثيراً من الراحة والحكمة في صحبتهما، حسبما يقول لنا الحديث التالي: "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم"[2].

"وحتى في ذبح الحيوان نجده يبدي قدراً عظيماً من الرقة والمرحمة. وعلى الرغم من أنه لم يكن نباتياً، فإن الأحاديث تبين لنا بوضوح أنه كان حساساً للغاية تجاه معاناة الحيوانات حتى لكأنه كان يشاركها ألمها مشاركة وجدانية. ومن هنا نجده يأمر باستعمال سكين حاد في الذبح واتباع طريقة مسئولة من شأنها أن تزهق روح الحيوان سريعاً بحيث يخف ألم الذبيحة إلى أقصى درجة ممكنة. كما نهى عن ذبح أي حيوان أمام غيره من الحيوانات أو إحداد الشفرة بحضرته، حسبما جاء في حديثه لمن كان يُحِد شفرته في حضور ذبيحته، إذ قال له مستنكراً: "أتريد أن تميتها موتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها"[3].

"ونقول ختاماً إنه من المستحيل إيفاء المدى الذي بلغته فلسفة محمد ﷺ البيئية، وكذلك الأهمية التي تستحقها، حقهما في هذه الرؤية القصيرة، فبصيرته الشاملة للطبيعة وفهمه لمكان الإنسان داخل العالم الطبيعي هما رؤية وفهم رائدان في مجال الوعي البيئي لدى المسلمين. وللأسف فإن الانسجام الذي دعا إليه محمد ﷺ بين الإنسان وبيئته قد تم تجاهله في أيامنا

---

[1] أخرجه النسائي في السنن الكبرى، جـ٣، ص٧٣، رقم (٤٥٣٥). ورواه أحمد في مسنده، جـ٣٢، ص٢٢٠، رقم (١٩٤٧٠).

[2] رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: الجهاد ماض مع البَر والفاجر، جـ٣، ص١٠٤٨، رقم (٢٦٩٧). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، جـ٣، ص١٤٩٣، رقم (١٨٧٣).

[3] الحديث عن ابن عباس- رضي الله عنهما. أخرجه الحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وأقره الذهبي. المستدرك، كتاب: الأضاحي، جـ٤، ص٢٥٧ رقم (٧٥٣٦).

هذه إلى حد بعيد. وفى الوقت الذي نواجه فيه آثار التلوث والإسراف في استخدام موارد الطبيعة والتصحر وشح الماء في بعض أماكن العالم مع المعاناة من الفيضانات والعواصف في غيرها من الأماكن، ربما يكون من الملائم بالنسبة لنا جميعاً، مسلمين ونصارى ويهوداً وهندوساً وبوذيين وغيرهم، أن نأخذ ورقة من كتاب محمد ﷺ ونواجه الأزمة البيئية الحالية بجد وحكمة"[1].

[1] محمد ﷺ رائد الحفاظ على البيئة. بقلم فرانسيسكا دو شاتِل، صحفية هولندية وكاتبة طليعية ومتخصصة في أنثروبولوجيا الثقافة الإسلامية. مقال مترجم بشبكة الجزائر التربوية التعليمية، بتصرف وزيادة.